المبحث الأول:

الباقلّاني والثقافة النّقدية والبلاغية في عصره

1- حياة الباقلّاني الثقافية والفكرية:

1-1. اسمه ونسبه:

هو "**محمد بن الطيّب بن محمد بن جعفر بن القاسم، أبو بكر القاضي** المعروف **بالباقلّاني**، أو ابن **الباقلّاني**.

و**الباقلّاني** نسبة إلى الباقلّاء وبيعه، كالنسبة إلى صنعاء صنعاني، وكان والده يشتغل بالباقلّاء وبيعها فنسب إليها. أما القاضي: فلقّب به لأنّه تولّى القضاء لعضد الدولة **البويهيّ** وكان يعتبر رئيس القضاة، بيده أمر تعيينهم وتوليهم."[1]

"ولد الإمام **الباقلّاني** بالبصرة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة للهجرة (338هـ)، ونشأ فيها وأخذ عن علمائها كثيرًا من العلوم الدّينية، فتثقّف بذلك ثقافة عربية إسلامية منوّعة، ثمّ رحل إلى بغداد ونهل منها علمًا غزيرًا فأقام فيها حتى توفاه **الله** تعالى سنة (403هـ)."[2]

1-2. مذهبـــه:

أما في "الاعتقاد فقد كان **أبو بكر الباقلّاني** سنيًّا علمًا في مذهب الإمام **أبي الحسن الأشعري**، رحمه **الله** تعالى وكان من أبرز الأئمة الذين ساهموا في انتشار هذا المذهب وتثبيت قواعده والدّفاع عنه خاصة في وجه المعتزلة وبعض الفرق الضالة ممّن حاولوا النّيل من عقيدة أهل السنّة."[3]

---

[1]- أبو بكر الباقلّاني، الانتصار للقرآن، تحقيق محمد القضاة، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 2001م - 1422هـ، م1، ص 17- 18.

[2]- المرجع نفسه، ص 18.

[3]- المرجع نفسه، ص 18.

ثمّ إنّ **الباقلّاني** "قد اندفع إلى نصرة هذا المذهب بما عرف عنه من قوّة الحجّة، وبراعة المحاورة وسرعة البديهة وطلاقة اللّسان، وغزارة البيان فكان الإمام منافحًا عن دين **الله** بما أوتي من قوة وبرهان."[1]

وكان "المذهب المالكي هو مذهبه الفقهي، كما نصّ على ذلك أكثر علماء عصره ومن كتب عنه، ثمّ إنّ القاضي **عيّاض** قد اعتبره إمام المالكيين في زمانه وعالم عصره المرجوع إليه فيما أشكل على غيره."[2]

1-3. شيـوخه:

لقد أتيح للإمام **الباقلّاني** "أن يتتلمذ على يد طائفة من العلماء الذين جمعوا بين العلم والعمل واشتهروا بالورع والتّقوى."[3]

"فأخذ عنهم جل المعارف والعلوم لا سيما في مجال العقيدة والفقه وعلم الكلام، وفي هذا الصدد سنذكر أبرز هؤلاء العلماء ممّن أخذ عنهم الإمام علمه وثقافته، حيث كان لهم كبير الأثر في شخصيته ونضوجه العلمي."[4] ومن هؤلاء:

1-"**أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مجاهد الطائي**: درس عليه **الباقلّاني** الأصول والمنطق والفقه، وكان حافظًا ضابطًا ومتقنًا، توفي بعد سنة (360هـ)."[5]

2-"**أبو الحسن الباهلي البصري**: صاحب **أبي الحسن الأشعري** وكان الباهلي أعرف العلماء بمذهب أبي الحسن، وأشدّهم فقها له وأقواهم حجة بالدفاع عنه، وقد تلقى **الباقلّاني** عليه أصول المذهب وقواعده."[6]

---

[1]- عبد العزيز عتّيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، ص 210-211.

[2] - الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص19.

[3]- أبو بكر الباقلّاني، إعجاز القرآن، تحقيق، أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط 3 ذخائر العرب، 12، ص 17-18.

[4]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، المرجع نفسه، ص19.

[5]- المرجع نفسه، ص19.

[6]- ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص19.

3-"**أبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري**: شيخ المالكية في عصره وقد أخذ عنه **الباقلاني** ونهل من علمه الغزير في الفقه، وصحبه الإمام طويلا توفي سنة (375هـ).

4-**أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي**: ونسبته إلى قطعية الدقيق في بغداد، وهو راوية مسند الإمام **أحمد**، وشيخ **الباقلّاني** في الحديث، توفي سنة (368هـ)."[1]

5- "**أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي**: من تلامذة **أبي الحسن الأشعري**، تتلمذ على يديه الإمام **الباقلّاني** آخذا عنه الأصول، توفي سنة (371 هـ).

6- **أبو أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري**: وقد أخذ عنه الإمام **أبو بكر** مسائل البلاغة والأدب بصفته إمامًا في الحفظ والأدب وصاحب أخبار ونوادر، توفي سنة (382هـ)."[2]

7- "**أبو محمد عبد الله بن أبي القيرواني**: من كبار أئمة الفقه المالكي، كان يعرف بمالك الصغير حيث أنّه جمع المذهب وشرح أقوال الإمام **مالك**، وقد أخذ عنه الكثير من العلماء ومنهم **الباقلّاني** الّذي أخذ عنه الفقه وكانت وفاته سنة (386هـ).

8- **محمد بن أحمد بن إسماعيل**: كان عجيبًا في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ، فكتب النّاس حكمه وجمعوا كلامه، توفي سنة (387هـ)."[3]

9- "**أبو الحسن الأشعري**: شيخ **الباقلّاني** الروحي، فهو من متكلّمي أهل السنّة ناهض المعتزلة وأسّس مذهباً وسطاً بين أهل العقل وأهل النقل، فكان نصيرًا لرأي أهل السنّة. أما **الباقلّاني** فكان يستمتع بفهم كلام **أبي الحسن**، وكانت أفضل أحواله حينما يقرأ في كتبه."[4]

---

[1]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص20.

[2]- المرجع نفسه، ص 20.

[3]- المرجع نفسه، ص 20.

[4]- سميرة فرحات، الباقلّاني حياته وآثاره، رسالة ماجستير، إ. وداد القاضي، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1980م، ص 18.

1- 4. ثقـافته وفكره:

يعدّ **الباقلّاني** "من علماء القرن الرابع الهجري، فهو من أهم أعلام المتكلّمين على مذهب الأشاعرة، عمل على نصرة مذهبه سالكاً طريق شيخه **أبي الحسن الأشعري**، ثمّ إنّه قد وهب حياته وعلمه للدفاع عن عقيدة السلف، والردّ على المخالفين والملحدين من الجهمية والمعتزلة والخوارج وغيره."[1]

فقد "استدعاه عضد الدولة **ابن بويه** إلى شيراز حاضرة ملكه ليمثّل أهل السنّة في مجلسه الذي كان يحوي الكثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم."[2]

إذ "أنّ عضد الدولة قد أفرد في داره لأهل الخصوص والحكماء والفلاسفة موضعا يقترب من مجلسه الذي لاحظ خلوّه من أهل السنّة فقال: هذا مجلس عامر بالعلماء، إلا أني لا أرى فيه واحدًا من أهل الثبات الحديث، أما لهؤلاء المثبتة من ناصر؟."[3]

"فكتب إلى **الباقلّاني** وهو لا يزال تلميذًا لدى **أبي الحسن الباهلي**، فقدم إليه من البصرة وهناك ناظر كبار المعتزلة فظهر عليهم بسلامة منطقه وسعة علمه، ووضوح بيانه، مما جعل عضد الدولة يعجب به فاستبقاه عنده ودفع إليه ابنه صمصام الدولة ليعلّمه مذهب أهل السنّة فكان الذي أراد."[4]

وقد "كانت هذه الدعوة فرصة من الفرص التي سنحت للإمام لنشر علمه والدفاع عن مذهبه ودينه. والنّاظر في مساره العلمي يلاحظ أنّه وقف حياته على أمرين ملكا عليه أقطار نفسه وهما: التدريس والتأليف."[5]

---

[1]- سحر الحسبان، توظيف البحث البلاغي في إعجاز القرآن بين الرّماني والباقلّاني، رسالة ماجستير، إ.علي البواب، ج آل البيت، 2005م - 2006م، ص 86.

[2]- عبد العزيز عتّيق، مرجع سابق، ص211 .

[3]- ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 20.

[4]- ينظر، عبد العزيز عتّيق، المرجع نفسه، ص 211 .

[5]- ينظر، سحر الحسبان، المرجع نفسه، ص 86.

أ. "أمّا التّدريس:

فقد اجتمعت له كل أدواته ولم يصرفه عنه صارف، حيث تتلمذ على يديه العديد من علماء البصرة وبغداد، وكان أكثر تلاميذه من العراق وخراسان، وقد تخرّج على يديه عشرات العلماء الأعلام."[1]

ثمّ إنّ **الباقلّاني** لا يزال "يعقد حلقات العلم أينما استقر في بغداد في جامع المنصور، وفي شيراز في بلاط عضد الدولة، وكان طلّاب العلم يقصدونه من مختلف أنحاء الخلافة الإسلامية ومن مختلف الفئات، ينهلون من معينه ويأخذون من علمه الغزير ومن جملة تلاميذه نذكر:

1- **أبو عمران موسى بن عيسى الفاسي**: وهو فقيه أهل القيروان، مالكي وكان تفقّهه بالمغرب والأندلس، وقد أخذ عن الإمام علم الأصول، توفي سنة (437هـ)."[2]

2-" **أبو ذر الهروي**: أخذ عن **الباقلّاني** علم الكلام، وهو من الفقهاء المالكية، محدث الحرم المعروف بدينه وورعه وعلمه، ومنه أخذ المغاربة المذهب الأشعري، كانت وفاته سنة (434هـ).

3- **القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي**: وهو الإمام الكبير صاحب التلقين، والإشراف وغيرهما وقد أخذ عن **الباقلّاني** الفقه وعلم الكلام، توفي سنة(422هـ).

4- **أبو الحسن عيسى السكري الشاعر**: وقد أخذ عن **الباقلّاني** علم الكلام هو الآخر ثمّ إنّه كان حافظًا بالقراءات أديبًا، وقد امتدح الإمام بقصيدة عظيمة "[3] كان مطلعها:

فكَأنَّهـــا من حيث قابلَتهـــــــــــا ** شيـــــمُ الإمام محمد بن الطيـــّـــبِ**

اليعْرُبي فصـــــــاحــة وبلاغـــــــــة ** والأشعـــــري إذا اعْتزى للمذهـــبِ**

قـاضِ إذا التبَس القضـاءُ على الحجى ** كشفـــت له الآراء كل مغــيـــــبِ."**[4]

---

[1]- ينظر، عبد العزيز عتّيق، مرجع سابق، ص 212 .

[2]- سميرة فرحات، مرجع سابق، ص 22 - 24.

[3]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 21.

[4]- سميرة فرحات، المرجع نفسه، ص 15.

5- "**الحسين بن حاتم الأزدي**: وهو الذي بعثه الإمام **الباقلّاني** إلى دمشق ليوضّح الحق ويبيّن مذهب أهل السنّة وقد نهل من علم **القاضي** أصول الفقه.

6-" القاضي **عبد الله بن محمد الأصبهاني**: المعروف بابن اللبّان، المتوفى سنة (446هـ)، وقد كان من كبار أهل العلم أخذ عن **الباقلّاني** الأصلين." [1]

7- "أمّا **محمد بن الحسين بن موسى النيسابوري أبو عبد الرحمان السلمي**: فقد تتلمذ لدى الإمام في شيراز وقرأ عليه كتاب (اللّمع) **لأبي الحسن الأشعري**.

8- **محمود بن الحسين الطبري: أبو حاتم** المعروف **بالقزويني**، أخذ عن الإمام **أبي الطيب** أصول الفقه."[2]

ومن بين طلّاب العلم "الذين تتلمذوا على يد **الباقلّاني** صمصام الدولة ابن عضد الدولة **البويهي** أدّبه القاضي وعلّمه شتى العلوم. اغتيل بعد وفاة والده سنة (388هـ)."[3]

ب. أمّـا التّأليـف:

فقد أسهم فيه الإمام بنصيب موفور، "وكان لورعه وتقواه أثر في غزارة مؤلّفاته، فكان من عادته إذا صلّى العشاء وقضى ورده كتب خمس وثلاثين ورقة، وكان إذا صلّى الفجر أعطى بعض أصحابه ما صنّفه ليلته ليقرأه عليه مع زيادة ما يراه مناسبًا فيه، وقد تسنّى **للباقلّاني** أن يؤلّف ما يقارب الخمسين كتابًا لم يصل منها إلى زماننا إلا عدد يسير."[4]

وقد "امتازت مؤلّفات الإمام بطول النّفس وجاءت في معظمها للدّفاع عن الدّين والتصدّي لردّ شبهات الفرق كالرافضة وأهل البدع والضلالات، كما أنّها اتّسمت بالعمق والقوّة. وبما أنّ **الباقلّاني**

[1]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 21.
[2]- المرجع نفسه، ص 21 - 22.
[3]- المرجع نفسه، ص 22.
[4]- ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص37.

رحمه **الله** قد امتاز عن غيره من المؤلّفين بالأصالة في كتاباته، فهو لا ينقل عن غيره في غالب الأحيان."[1]

ولعلَّ من أهم ما تركه الإمام **الباقلّاني** من آثار وتآليف ما يلي:

1. **"كتاب التمهيد:** وهو من أهم الكتب الكلامية التي تعلّق بها أهل السنّة تعلّقا شديدًا، فكان أجمع كتاب يبصرهم بمسائل الخلاف بينهم وبين مخالفيهم في الرأي والعقيدة، مع إرشادهم إلى أقوى الأدلّة الجدلية وأحكم البراهين العقلية، التي تظهر رجاحة مذهبهم على ما عداه من المذاهب الأخرى، وقد ألّف كتابه هذا في أثناء مقامه بشيراز للأمير **أبي كاليجار المرزبان،** ابن عضد الدولة وولي عهده."[2]
2. **"كتاب هداية المسترشدين والمقنع في معرفة أصول الدّين:** وهو مجلد كبير مخطوط وجدت نسخة منه في مكتبة الأزهر برقم (342) توحيد، يشتمل على أحد عشر جزءًا."[3]
3. **"كتاب الانتصار لصحة نقل القرآن والردّ على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان:** وقد ذكر فيه **الباقلّاني** جميع مطاعن الملحدة وكل من خالف عن الملّة على القرآن، مع كشفه عن فساد توهّمهم وتمويههم، وقد وجدت نسخة من الجزء الأوّل للكتاب في مكتبة قرة **مصطفى باشا** بإسطنبول."[4]
4. **"كتاب الفرق بين معجزات النبيّين وكرامات الصالحين:** مطبوع بتحقيق **ريتشرد مكارتي** سنة (1958م) ويوجد قسم منه في مكتبة تبنجن بألمانيا."[5]

---

[1]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 22.

[2]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 37.

[3]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، المرجع نفسه، ص 23.

[4]- ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه ، ص43.

[5]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، المرجع نفسه، ص 22.

5. "**كتاب مناقب الأئمة ونقض المطاعن على سلف الأمّة:** وتوجد نسخة من الجزء الثاني له في الخزانة الظاهرية بدمشق."[1]

6. "**كتاب الإبانة عن إبطال أهل الكفر والضلالة.**

7. **كتاب كيفية الاستشهاد في الردّ على أهل الجحد والعناد.**

8. **كتاب الإمامة الكبير.**

9. **كتاب الأصول الكبير في الفقه.**

10. **كتاب مسائل الأصول.**

11. **كتاب أمالي إجماع أهل المدينة.**

12. **كتاب الردّ على المتناسخين.**

13. **كتاب الردّ على المعتزلة.**

14. **كتاب المقدّمات في أصول الديانات.**

15. **كتاب التقريب والإرشاد في الأصول.**

16. **كتاب المقنع في أصول الفقه.**

17. **كتاب دقائق الإسلام والرّد على من خالف الحق من الأوائل وممتحني الإسلام.**

18. **كتاب مختصر التقريب والإرشاد الأصغر.**

19. **كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار في الرّد على الباطنية.**

20. **شرح كتاب (اللّمع) للإمام أبي الحسن الشعري رحمه الله تعالى."**[2]

[1]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 42.

[2]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 23 - 24 .

21. **كتاب إعجاز القرآن:** الذي يعدّ "أول كتاب يحمل عنوان الإعجاز القرآني ومضمونه، وقد طبع عدّة طبعات في مصر على هامش كتاب الإتقان وجاء منفردًا بتحقيق **سيّد صقر** رحمه **الله** تعالى"[1]، ولنا حديث بخصوص هذا المؤلّف في المبحث الثاني.

والملاحظ من عناوين هذه المصنّفات أنّ **الباقلّاني** قد وهب حياته للعلم، مسخّرًا إيّاه للدفاع عن الدّين والرسالة الإسلامية طارقًا بذلك كل أبواب العلوم الدّينية من فقه وأصول وإعجاز منتصرًا للقرآن في ردّه القوي على أهل الضلال والكفر والطعن والعناد.

ثمّ إنّ هذه "التآليف وغيرها تنسب كلها للإمام وقد أوردها القاضي **عيّاض** في ترجمته للقاضي **أبي بكر** رحمهما **الله** تعالى، في كتابه (ترتيب المدارك) (2: 601). وتعدّ هذه الترجمة من أوفى ما كتب عن **الباقلّاني** من التراجم."[2]

وانطلاقًا ممّا سبق نجد **الباقلّاني** قد أخذ من كل علم بنصيب، فلم يكن اهتمامه منصبًّا على التدريس والتأليف فحسب بل إنّه قد سلك في حياته سبلا أخرى غير هاذين الأمرين رفعت من قدره وشأنه ليصبح الإمام العالم بجدارة واستحقاق، فكان **قاضيًا، ومالكيًا، ومتكلّمًا**.

* الباقلّاني قاضيًا:

"لقد ذكر القاضي **عيّاض** في (ترتيب المدارك) أنّ **الباقلّاني** قد تولّى القضاء بالثغر، وهي بلدة حدودية تقع في دار الإسلام على حدود البحر، وقد تولّى القضاء غير مرّة وفي غير مكان في الدولة الإسلامية، إذ لم يحدد التاريخ الذي كان فيه الإمام قاضيًا، غير أنّ لقب القاضي قد نعته به أنصاره وخصومه، وجرى عليه فلازم اسمه."[3]

[1]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 23.

[2]- المرجع نفسه، ص 25.

[3]- سميرة فرحات، مرجع سابق، ص30 (بتصرف).

* الباقلّاني مالكيًا:

لقد "اختلف في مذهب **الباقلّاني** أمالكي مذهبه أم شافعي لينسبه بعض المترجمين إلى المذهب المالكي، بينما نسبه آخرون إلى الشافعي، وهناك فئة ثالثة لم تؤكّد على شافعيته ولا على مالكيته، فتركت بذلك مذهبه الفقهي واتّجهت إلى تحديد مذهبه الكلامي، فنُعت من قِبلها (بالمتكلم على المذهب الأشعري)." [1]

ورغم هذا الاختلاف إلا أنّ القاضي **عيّاض** "قد أورد له ترجمة في (ترتيب المدارك) واعتبره مالكي المذهب. وفعل ذات الشيء **ابن فرحون** في (الديباج المذهّب).

كما أثبت **تاج الدّين السبتي–** لنفي الشك عن مذهب **الباقلّاني–** مالكيته مع إثبات شافعية شيخه **أبي الحسن الأشعري**. حيث يقول: كان **الأشعري** شافعيًا،...وكان القاضي **الباقلّاني** مالكيًا."[2]

وقد صنّف **الباقلّاني** في "الطبقة الثانية للأشعرية، ويعدّ من الذين حاولوا الاستقلال في أحكامهم الفقهية فيجعل الحكم والصلاح للرأي الأنسب، ومن اجتهاده في الفقه ما أفتى به في مسألة هل على الكافر نعمة ؟ فوافق **أبا حنيفة** في ذهابه إلى أنّ على الكافر نعمة. ليترك بذلك **الأشعري** في فتواه القائلة بأنّه ليس على الكافر نعمة....وبهذا يكون الإمام قد استقل بفتواه ولم يكن الإتّباع في المسألة لزامًا عليه."[3]

* البـــاقلّاني متكلّمًا:

مما لا شك فيه أنّ "تلك المسائل الكلامية التي أثيرت في مجلس عضد الدولة، وكذا في بلاط ملك الرّوح عندما قدم إليه **الباقلّاني** سفيرًا وممثلا لبلاده سنة (371 هـ)، ومبعوثًا من قبل عضد الدولة في

[1]- سميرة فرحات، مرجع سابق، ص30 .

[2]- ينظر، المرجع نفسه، ص 31.

[3]- المرجع نفسه، ص 32.

جواب الرسالة الواردة من الملك كانت محط أنظار الرّواة، فتناقلوها لما فيها من أهمية."[1]

ثمّ إنّ النّاظر في هذه المسائل يرى فيها "دلالة واضحة على طريقة **الباقلّاني** في الكلام، ومذهبه فيه وذلك لما فيها من تعدّد وتشعّب فمن مسألة التوحيد والصفات، إلى مسألة الرؤية، ثمّ مسألة الإيمان بالمعجزات كانشقاق القمر وظهوره على محمد ρ."[2]

1-5. وفـــــاتـــه:

لقد "حدّث **الخطيب البغدادي** عن **علي بن أبى علي المعدل**، قال: أنّ القاضي **أبو بكر محمد بن الطيب**، قد مات في يوم السبت لسبع يقين من ذي الحجة سنة ثلاث وأربعمائة. وقد قال **أبو الحجاج**: توفي القاضي **الباقلّاني** سنة أربع وأربعمائة."[3]

وفي رواية أخرى "يؤكّد **ابن عساكر** أنّ وفاة القاضي صادفت يوم السبت الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة."[4]

وقد "دفن الإمام في داره، ثم نقل ودفن في مقبرة باب حرب في تربة بقرب قبر الإمام **أحمد بن حنبل**، وقد حضر **أبو الفضل التميمي الحنبلي** جنازته، وقال فيها مناديًا: هذا ناصر السنّة والدّين هذا إمام المسلمين، هذا الذي كان يذبّ عن الشريعة ألسنة المخالفين، هذا الذي صنّف سبعين ألف ورقة ردًّا على الملحدين."[5]

هذا وقد "رثاه أحد الشعراء قائلا:

انظر إلى جَبَل تمشي الرجالُ بــه ** وانظر إلى القَبرِ ما يَحوي من الصَلَفِ.**

وانظر إلى صارِمِ الإسلامِ مُعتمــدًا ** وانظر إلى درّةِ الإســلامِ في الصَّــدَفِ."[6]**

---

[1] - سميرة فرحات، مرجع سابق، ص 32.

[2] - ينظر، المرجع نفسه، ص 32.

[3] - الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 65 - 66.

[4] - ينظر، سميرة فرحات، المرجع نفسه، ص 27.

[5] - الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه ، ص 66.

[6] - عبد العزيز عتّيق، مرجع سابق، ص 214.

2- مكانة الباقلّاني وآراء العلماء فيه:

لقد كاد العديد من المؤرّخين أن يجمعوا على "كون **الباقلّاني** رحمه **الله** تعالى المجدّد للدّين على رأس المائة الرابعة وذلك لفضله وعلمه وما بذله من جهود مضنية في خدمة مذهب أهل السنّة والجماعة، مدافعًا عن دين **الله** عز وجل."[1]

فقد روى "ابن عساكر أنّه سمع الشيخ الإمام **أبا الحسن علي** بن المسلم يقول - على كرسيّه بجامع دمشق - ذاكرًا حديث **أبي علقمة:** كان على رأس المائة الأولى: **عمر بن عبد العزيز،** وكان على رأس المائة الثانية: **محمد ابن إدريس الشافعي،** وكان على رأس المائة الثالثة: **الأشعري** وكان على رأس المائة الرابعة: **ابن الباقلّاني.**"[2]

كما جاء في حديث رسول **الله**ρ:" إنّ **الله** يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة، من يجدّد لها دينها."[3]

وعن الإمام **الباقلّاني** يقول **اليافعي** في كتابه (مرآة الجنان):" هو سيف السنّة، وناصر الملّة الإمام الكبير...لسان المتكلّمين، وموضّح البراهين، وقامع المبتدعين، وقاطع المبطلين، الأصولي المتكلم، والأشعري المالكي المجدد على رأس المائة الرابعة."[4]

أما عن لسانه وبيانه يقول **الخطيب البغدادي:**" كان **الباقلّاني** ثقة، وأمّا الكلام فكان أعرف النّاس به وأحسنهم خاطرًا وأجودهم لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأصحّهم عبارة."[5]

وعلى هذا فقد كان للقاضي **الباقلّاني** مكانة عالية في العلم وسعة الاطلاع، فهو الذي كان يؤلّف ويكتب أصالة دون الرجوع إلى كتب غيره، وفي ذلك نرى **"علي بن محمد بن الحربي المالكي**

---

[1]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 25.

[2]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 50.

[3]- المرجع نفسه، ص50.

[4]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، المرجع نفسه ، ص 26.

[5]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه ، ص 50.

يقول عنه:كان القاضي **أبو بكر** يهمّ بأن يختصر ما يصنّفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه وما صنّف أحد خلافًا إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين غير القاضي، فإنّ جميع ما كان يذكر خلاف الناس فيه صنفه من حفظه."[1]

هذا وقد ذكره القاضي **عيّاض** في كتابه (ترتيب المدارك وتقريب المسالك) قائلا:" ومن أهل العراق والمشرق: **أبو بكر محمد ابن الطيّب بن محمد** القاضي المعروف **بابن الباقلّاني**، الملقّب بشيخ السنّة، ولسان الأمّة، المتكلم على مذهب المثبتة وأهل الحديث وطريقة الأشعري."[2]

والملاحظ من هذا أنّ **الباقلّاني** ربما كان هو العالم الوحيد الذي كثرت ألقابه فمن لسان الأمّة وشيخ السنّة، إلى صارم الإسلام ودرّة الإسلام.

أما **ابن خلّكان** فيقول عنه هو الآخر:" القاضي **أبو بكر**:..المعروف **بالباقلّاني**، المتكلّم المشهور...صنّف التصانيف الكثيرة في علم الكلام وغيره...انتهت إليه الرياسة في مذهبه. ويضيف مادحًا إيّاه: وكان موصوفًا بجودة الاستنباط، وسرعة الجواب وسمع الحديث، وكان كثير التطويل في المناظرة ممّا يدل على علمه الغزير وثقافته وفكره الواسع."[3]

وقد لقّبه **الذهبي** في (سير أعلام النبلاء):" بالإمام العلامة أوحد المتكلّمين...كان يضرب به المثل بفهمه، وكان بحق إمامًا بارعًا، صنّف في الردّ على المعتزلة والرافضة منتصرًا لطريقة شيخه **أبي الحسن**."[4]

وفي ذات السّياق ومع ما كان عليه الإمام من الرّسوخ في علم الكلام والمناظرات، إلا أنّه اتّسم بقوة الورع والتقى، وفي ذلك نجد الإمام **أبو حاتم القزويني** يقول:" إنّما كان يضمره القاضي **أبو بكر الأشعري** رضي **الله** عنه من الورع والديانة والزهد والصيانة أضعاف ما كان يظهره، فقيل له في ذلك،

[1]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 27.
[2]- ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 50.
[3]- المرجع نفسه، ص 51.
[4]- ينظر، المرجع نفسه، ص 51.

فقال: إنّما أظهر ما أظهره غيظا لليهود والنصارى والمعتزلة والرافضة لألّا يستحقروا علماء الحق والدّين."[1]

هذا ويقول **أبو عبد الله الصيرفي** في نفس الشّأن:"كان صلاح القاضي أكثر من علمه، وما نفع **الله** هذه الأمة بكتبه، وبثّها فيهم إلا بحسن نيّته واحتسابه بذلك، وكان يدرس نهاره وأكثر ليله."[2]

ثمّ إنّه من غير الممكن استيفاء كل ما قيل عن الإمام **الباقلّاني**، وذلك لأنّ الثناء عليه ومدحه والاعتراف بعلمه نجده عند جل العلماء من الذين عاصروه وعرفوه، أو من الذين لم يعرفوا عنه سوى آثاره وما تركه من إرث تفخر به الأجيال بعده وتنهل من فيضه الفكري والدّيني، حيث اقتصرنا الحديث بما جاء في أقوال هؤلاء العلماء، لنصل في النهاية إلى أنّ القاضي **أبو بكر** كان علّامة ومتكلمًا وفقيهًا له من المكانة الراقية ما يجعله بحق درّة الإسلام ولسان الأمة والمجدد للدّين الحنيف.

[1]- ينظر، الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 26 – 27.

[2]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 52.

3- قضايا البلاغة في عصر البـاقلّانـي.

لقد نزل القرآن الكريم على قوم كانت الفصاحة والبلاغة صنعتهم التي اشتهروا بها، فكان حجة بلاغية كبرى ومعجزة عظمى أوقفت العرب أمامه مبهورين، لا يجدون لتأثيره ردّا، "وقد شغل النّاس بالقرآن بعد انتشار الإسلام فتدارسوه وسعوا إلى إيضاح معانيه، وللتّحدث عن ألفاظه وتراكيبه. ولعلَّ البلاغة كانت من العلوم التي أولوها عناية كبيرة وجعلوها أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفّظ، لأنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلَّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما أخصّه **الله** تعالى به من حسن التأليف وبراعة التركيب."[1]

لقد كان للقرآن "تأثيره الواضح في الدراسات البلاغية والنّقدية وكانت آياته البيّنات الشاهد البلاغي الرفيع كما كان ما فيها من روعة وجمال تأثير مدعاة إلى التأليف في غريبه ومعانيه وأسراره وإعجازه."[2]

وقد كان "لمسألة الإعجاز أثر كبير في تطوّر البلاغة والنّقد، وكان المتكلّمون أول من بحثوا في إعجاز القرآن وبلاغته. ولعلّ الإمام **الباقلّاني** يعدّ واحدًا من هؤلاء فهو من أبرز علماء الكلام وشخصية من شخصيات الفكر الإسلامي في القرن الرابع الهجري."[3] الذي جاء ولا تزال قضية الإعجاز تدفع العلماء إلى التأليف في بلاغة القرآن للوصول إلى تعليل وجه الإعجاز البلاغي، ليدرك النّاس كيف بلغ القرآن حد الإعجاز. و قد أخذوا على عاتقهم مهمة خدمة القرآن و الدفاع عن الإسلام و الرد على خصومه ومعارضيه.

ثمّ إنّ العلماء الذين عاصروا **الباقلّاني** قد استفادوا من جهود السابقين خاصة في الدفاع عن النّظم والبلاغة في القرآن التي فاقت سائر البلاغات.

---

[1]- ينظر، أحمد مطلوب اتجاهات النقد الأدبي (في القرن الرابع للهجرة)، وكالة المطبوعات الكويت، ط 1- 1973م، بيروت.ص 119- 120- 121 .

[2]- المرجع نفسه، ص 121 (بتصرف).

[3]- المرجع نفسه، ص 121 (بتصرف).

أما البلاغة فهي "معرفة الفصل من الوصل وهي أن تصيب ولا تخطأ، وتسرع ولا تبطئ وهي اختيار الكلام وتصحيح الأقسام، وفي هذا يقول **إبراهيم بن محمد**: يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام النّاطق ولا النّاطق من سوء فهم السّامع. وقد قال **سهل بن هارون** الكاتب:" العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم."[1]

وفي هذا السياق يقول الخطيب **القزويني**:" وللبلاغة طرفان: أعلى إليه تنتهي، وهو حد الإعجاز وما يقرب منه وأسفل منه تبتدئ، وهو ما إذا غُيِّر الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب."[2]

" ولقد قام علم البلاغة ملازمًا لعلم الإعجاز القرآني فتاريخها مرتبط بتاريخه، وبما أنّ الجانب البلاغي في القرآن الكريم هو أبرز وجوه إعجازه، اهتم علماء القرن الرابع الهجري بالبحث في إبراز هذه الوجوه الإعجازية وتقصّي بلاغة القرآن وتجلياتها، وهذا من خلال ما وضعوه من كتب عالجت هذه القضية، ولعلَّ **ابن يزيد الواسطي** هو أوّل من ألّف كتابًا في المسألة سمّاه (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) وكان ذلك في أوائل القرن الرابع للهجرة."[3]

[1]- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م - 1402هـ، ص 59 - 60 - 61.

[2]- جيلالي أمينة حورية، الإعجاز البلاغي في آيات الخوف والرجاء سورة التوبة نموذجا، بإشراف قدور المهاجي، 2013م- 2014م، ص 78.

[3]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 124.

و فيما سيأتي نذكر أهم القضايا البلاغية التي شهدها عصر الباقلاني و كان أولها:

3-1 قضية الإعجاز:

التي انصب عليها اهتمام علماء القرن الرابع الهجري، ولعلَّ من أهم الأسماء الذين عاصروا الإمام **الباقلّاني**، وألّفوا في قضية الإعجاز القرآني خلال هذا القرن هم: **الرّماني، الخطّابي، والقاضي عبد الجبار**.

أ- أبو الحسن الرّماني(386هـ).

اسمه **أبو الحسن علي ابن عبد الله الرّماني**، النحوي المتكلم أحد الأئمة المشاهير، لقب **بالرّماني** نسبة إلى الرمان وبيعه، أو إلى قصر الرمان في العراق، ولد سنة (296هـ) ببغداد وتوفي بها، أخذ علوم اللّغة والأدب عن **ابن السراج، وابن دريد، والزجّاج** وكان **أبو بكر ابن الإخشيد** شيخًا له، وكان من رؤوس المعتزلة. وقد عاش **الرّماني** حياته في كنف العلم والمعرفة، وجمع بين علم الكلام والعربية، وقد أثر عنه العديد من التصانيف أهمها: (تفسير القرآن)، (الألفاظ المترادفة)،و (النّكت في إعجاز القرآن)."[1]

ونحو هذا الأخير توجّهت أنظارنا في هذا المقام، فقد ألّف **الرّماني** رسالته هذه "ليحيط بها على جوانب قضية الإعجاز في القرآن حيث نجده يحاول من خلالها تحديد مفهوم البلاغة في إقصاء منه لما سبق لها من تعريفات كأن تكون البلاغة مجرد إيصال المعنى وإفهامه أو تحقيق اللّفظ على المعنى ليختار للبلاغة مفهومًا مغايرًا وهو إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللّفظ."[2]

وفي هذا نجده يقول:"وليست البلاغة إفهام المعنى وإنّما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللّفظ."[3]

---

[1]- جيلالي أمينة، مرجع سابق، ص 32.

[2]- المرجع نفسه، ص 32.

[3]- أبو الحسن الرّماني، النّكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، للرّماني و الخطابي و الجرجاني، ت.محمد خلف و محمد زغلول، دار المعارف، مصر، ص 75- 76.

ثمّ إنّه قد جعل البلاغة على ثلاث طبقات: طبقة عليا وطبقة وسطى وأخرى دنيا، ولمعرفة هاته الطبقات نورد ما قاله **الرّماني** عنها في نكته:" فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. ومنها ما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس."[1]

وبما أنّ للبلاغة لديه شأن كبير فقد اهتم بتوضيحها "منتصرًا لبلاغة القرآن دون غيرها من البلاغات الأخرى معتبرًا إيّاها وجهًا من وجوه الإعجاز التي أظهرها في كتابه القيّم من سبع جهات نذكرها مرتّبة كما يلي:

- ترك المعارضة مع توفّر الدواعي وشدّة الحاجة.
- التحدّي للكافة.
- الصرفة.
- البلاغة.
- الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.
- نقض العادة.
- قياسه بكل معجزة."[2]

وفي ذات المقام نجده يحصر البلاغة في عشرة أقسام وهي: (الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف، التضمين، المبالغة، حسن البيان)."[3]

ثم أعطى لكل قسم منها تفسيرًا وجيزًا مستشهداً بآيات من الذكر الحكيم، وسنورد في هذا الصدد ما قدّمه **الرّماني** حول هذه الأبواب البلاغية و هي:

---

[1]- الرّماني، مرجع سابق، ص 75.

[2]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 124.

[3]- عبد العزيز عرفة، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1405 – 1985م، ص 323.

أولا: الإيجاز.

و هو عنده:" تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبّر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبّر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز."[1]

وقد "جعله **الرّماني** على وجهين: حذف و قصر، أما إيجاز الحذف فهو إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام."[2]

ثمّ نجده يسوق بهذا الوجه من الإيجاز أمثلة من القرآن منها " قوله تعالى:"**وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ** "

(يوسف : 82).

ويضيف أنّ منه حذف الأجوبة وهو أبلغ من الذّكر، وقد جاء في القرآن منه كثير كقوله جلّ شأنه:"**وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ** ﴿٧٣﴾ " (الزّمر : 73).

وقد علق على الآية قائلا :كأنّه قيل حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التكدير."[3]

وفي توضيحه للقيمة البلاغية لإيجاز الحذف يقول:" وإنّما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذّكر، لأنّ النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمّنه البيان."[4]

أما عن "إيجاز القصر فقد وصفه بأنّه بنية الكلام على تقليل اللّفظ وتكثير المعنى من غير حذف، هذا وقد عقد **الرّماني** في هذا الباب مقارنة بين بلاغة القرآن وبلاغة البشر، فمثل من القرآن بقوله جلّ شأنه:" **وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴿١٧٩﴾ "(البقرة : 179).

---

[1]- الرّماني، مرجع سابق، ص 12.

[2]- المرجع نفسه، ص 76.

[3]- عبد العزيز عرفة، مرجع سابق، ص 323 (بتصرف).

[4]- الرّماني، المرجع نفسه، ص77.

ومثّل لبلاغة الناس بقولهم (القتل أنفى للقتل) ويقول: أنّ هذا الإيجاز مستحسن عند النّاس وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز."[1]

ثمّ إنّه قد أظهر هذا التفاوت ضمن أربعة أوجه:

– "**الكثرة في الفائدة**: وفيه كل ما في قولهم: القتل أنفى للقتل، وزيادة معان حسنة، منها إبانة العدل لذكر القصاص، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة، وفيها استدعاء بالرغبة والرهبة لحكم **الله** به."[2]

– "**الإيجاز في العبارة**: أي أنّ الآية جاءت بعشرة أحرف أما قولهم (القتل أنفى للقتل) فجاءت بأربعة عشر حرفًا."[3]

– "**البعد عن الكلفة بالتكرير**: الذي فيه نوع من المشقّة على النّفس، ففي عبارة من قول البشر تكرير، كلّما حضر في كلامهم فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة.

– **الحسن بتأليف الحروف المتلائمة**: وهو الذي يدرك بالحسّ ويوجد في اللّفظ، فالخروج من الصاد إلى الحاء في الآية أعدل من الخروج من الألف إلى اللّام في العبارة."[4]

ويؤكّد **الرّماني** بعد ذكره لهذه الأوجه "أنّ اجتماعها في الآية الكريمة يجعله أبلغ وأحسن من قولهم وإن كان بليغًا حسنًا، وبهذا يكون الإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر، وهو البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ، أي إظهار المعنى الكثير باللّفظ اليسير وهو تهذيب الكلام بما يحسن من البيان."[5]

ثمّ إنّ "الذي عرف الإيجاز ومراتبه وتأمّل ما جاء منه في كلام **الله** تعالى سيعي حتمًا فضيلة القرآن الكريم وعلوّه على سائر الكلام، وسموّ بيانه على غيره من أصناف البيان."[6]

---

[1]– عبد العزيز عرفة، مرجع سابق ، ص 324 (بتصرف).

[2] - الرّماني، مرجع سابق، ص 77 – 78.

[3]– المرجع نفسه، ص 77 – 78.

[4]– عبد العزيز عرفة، المرجع نفسه، ص 325 (بتصرف).

[5]– ينظر، الرّماني، المرجع نفسه، ص 78– 80.

[6]– المرجع نفسه، ص 80.

ثانيًا: التشبيه.

وقد عرّفه **الرّماني** بقوله:" هو العقد على أنّ أحد الشيئين يسدّ مسد الآخر في حس أو عقل."[1]

فالتشبيه عنده مقسّم إلى حسي وعقلي، ويضيف قائلا:" والتشبيه على وجهين: تشبيه شيئين متّفقين بأنفسهما كتشبيه الجوهر بالجوهر، والسواد بالسواد. والثاني تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما، كتشبيه الشدّة بالموت، والبيان بالسّحر الحلال. أما التشبيه البليغ فهو إخراج الأغمض من الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف."[2]

وفي ذات السّياق يعتبر **الرّماني** "التشبيه من الأبواب التي يتفاضل فيها الشعراء وتظهر فيها بلاغة البلغاء وذلك لأنّه يعطي الكلام بيانًا عجيبًا، فبلاغته تكمن في الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بيانًا فيهما."[3]

هذا وقد وضّح **الرّماني** الوجوه التي يقع فيها البيان بالتشبيه في القرآن الكريم، فأعطى لكل وجه منها مثاله من الآيات الكريمة وسندرجها في هذا السياق مرتّبة باختصار كالآتي:

– "**إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة:** وذلك نحو تشبيه المعدوم بالغائب، ومثاله قوله تعالى:"**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا** ﴿٣٩﴾ " (النور: 39).

وهنا قد اجتمع في بطلان المتوهّم مع شدّة الحاجة وعظم الفاقة، ثمّ إنّ تشبيه أعمال الكفّار بالسراب هو تشبيه بلاغة، وهو من حسن التشبيه كما نوّه إلى ذلك **الرّماني**."[4]

---

[1]- الرّماني، مرجع سابق ، ص 80.

[2] - المرجع نفسه، ص 81.

[3]– المرجع نفسه، ص 81.

[4]– عبد العزيز عرفة، مرجع سابق، ص 327.

– **"إخراج ما لم تجري به عادة إلى ما جرت به عادة:** كتشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ من النوم، ومثاله من القرآن ما جاء في قوله عزَّ وجلَّ:"**إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ** ﴿٢٤﴾ " (يونس: 24).

وفيه قد اجتمع المشبّه والمشبّه به في الزينة والبهجة، ثمّ الهلاك بعده وتلك عبرة لمن اعتبر والموعظة أنّ كل فان حقير وإن طالت مدّته وصغير وإن كبر قدره."[1]

– " **إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة:** وذلك مثل تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب، وقد استخرج **الرّماني** لهذا الوجه مثاله من القرآن من نحو قوله تعالى:"**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴿٧﴾ "(الحاقة– :7). وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها فقد اجتمع المشبّه والمشبّه به في خلوّ الأجساد من الأرواح، وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل."[2]

– **"إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة:** كتشبيه ضياء السراج بضياء النهار وقد أورد **الرّماني** مثالا له من كلام رب العالمين، وفيه يقول جلَّ وعلا:"**وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ** ﴿٢٤﴾ " (الرّحمن: 24).

وفيه قد اجتمعا – المشبّه والمشبّه به – في العظم إلا أنّ الجبال أعظم، والعبرة تأتي من جهة القدرة فيما صخّر من الفلك الجارية في البحر مع عظمها، وما في ذلك من منفعة للبشر."[3]

وعليه فإنّ "كل هذه التفضيلات في التشبيه كان لها عظيم الأثر في دراسات البلاغيين الذين جاءوا بعد **الرّماني**، فقد انتفع بها كل من **أبي هلال العسكري** والإمام **عبد القاهر الجرجاني**."[4]

---

[1]– الرّماني، مرجع سابق، ص 83.

[2]– المرجع نفسه، ص84.

[3]– المرجع نفسه، ص85.

[4]– عبد العزيز عرفة، مرجع سابق، ص 329.

ثالثًا: الاستعارة:

إنّ الاستعارة كما ذكرها **الرّماني** هي "تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللّغة على جهة النقل للإبانة، ثمّ حاول أن يوضّح الفرق بين الاستعارة والتشبيه فرأى أنّهما جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما كسبب بيان أحدهما بالآخر، ثمّ إنّ الغرض من الاستعارة يكون بنقل الكلمة من معناها الأصلي إلى المعنى المجازي الذي استعملت فيه."[1]

أما في التشبيه "فيكون بواسطة أداته الدالة عليه في اللغة فيبقى التشبيه في الكلام على أصله، لم يغير عنه في الاستعمال، وأضاف **الرّماني** للاستعارة ثلاثة أركان هي مستعار، ومستعار له، ومستعار منه، ثمّ إنّ اللّفظ المستعار لابد له من حقيقة وهي دلالته على معناه في أصل الوضع وحقيقته أصل استعماله في المعنى المجازي فرع، ثمّ إنّ كل استعارة في نظره لابد لها من حقيقة ولابد من بيان لا يفهم بالحقيقة."[2]

وزيادة على هذا نجده يوضح جمال الاستعارة في القرآن الكريم، ويفرد لها تحليلا رائعًا حيث مثّل لها بقوله جلَّ شأنه:" **وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا** ﴿٤﴾ " (مريم : 04) وفيه أنّ "أصل الاشتعال للنّار، وهو في هذا الموضع أبلغ وحقيقته كثرة شيب الرأس، ثمّ إنّ الكثرة في تزايدها السّريع صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار...وهذا يدل على موقعه العجيب في البلاغة."[3]

وفي مثال آخر للاستعارة القرآنية نجده يذكر ما جاء في فحوى الآية الشريفة التي تقول:"**وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٞ** ﴿٤﴾ " (الزخرف : 04).

"وفيه يذكر أنّ المستعار هو (أم الكتاب) وحقيقته (أصل الكتاب) والأوّل أبلغ لأنّ الأم أجمع وأظهر فيما يرد إليه مما ينشأ عنه."[4]

---

[1]- عبد العزيز عرفة، مرجع سابق ، ص 329.

[2]- الرّماني، مرجع سابق، ص86 (بتصرف).

[3]- المرجع نفسه، ص 88 .

[4]- المرجع نفسه، ص 87 .

رابعـًا: التلاؤم:

الذي هو "نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف، وهو عنده على ثلاث وجوه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا. فالمتلائم في الطبقة العليا هو القرآن كلّه، وقد حدّد الفرق بينه وبين غيره من الكلام الذي يكون في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى."[1]

ثمّ إنّ "السبب في التلاؤم هو تعديل الحروف في التأليف فكلّما كان أعدل كان أشد تلاؤمًا.

أما بخصوص التنافر فقد نقل سببه عن الخليل، ليحدّد بأنّه البعد الشديد في مخارج الحروف أو شدّة قربها."[2]

أما بلاغة التلاؤم عند **الرّماني** "فتكمن في حسن الكلام سمعًا، وسهولته لفظًا، وتقبّل معناه في النّفوس.

ويكون التلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد ليظهر بسهولته على اللّسان، وحسنه في الأسماع، وتقبّله في الطباع، وإذا أضيف إلى ذلك كلّه حسن البيان في صحة البرهان ظهر الإعجاز، وعمّ التحدّي به للجميع."[3]

فقال عزَّ وجلَّ:"**وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ** ﴿٢٣﴾ "(البقرة : 23).

[1] - ينظر، الرّماني، مرجع سابق ، ص 94 – 95.

[2] – المرجع نفسه، ص 96.

[3] – المرجع نفسه، ص 96 – 97.

خـامسًا: الفواصل:

وهي عنده "حروف متشابكة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، لأنّ الفواصل تابعة للمعاني، بينما الأسجاع فالمعاني تابعة لها."[1]

ثمّ يقول:" وفواصل القرآن كلّها بلاغة وحكمة لأنّها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل عليها وهي على وجهين: الأول على الحروف المتجانسة كقوله تعالى:" **طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣** " (طه : 1-2-3).

أما الثاني فعلى الحروف المتقاربة، كالميم من النون"[2] في قوله عزَّ وجلَّ:" **ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤** " (الفاتحة : 3 - 4).

وعليه فإنّ "الحسن في الفواصل عنده يكمن في الحروف المتقاربة، لأنّه يكتنف الكلام من البيان ما يدلّ على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع، لما في ذلك من البلاغة وحسن العبارة، إضافة إلى ذلك فإنّ الفائدة في الفواصل هي دلالتها على المقاطع، وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبداؤها في الآي بالنّظائر."[3]

سـادسًا: التجـانس:

والمقصود به الجناس، ويقول فيه تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللّغة، وقد حدّده على وجهين:

---

[1]- الرّماني، مرجع سابق، ص 97.

[2]- المرجع نفسه، ص 98 (بتصرف).

[3]- عبد العزيز عرفة، مرجع سابق، ص 334 (بتصرف).

– **المزاوجة:** وتقع في الجزاء، ثمّ نجده يسوق الشاهد على هذا من القرآن بقوله تعالى:" **فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ** ﴿١٩٤﴾ " (البقرة : 194).[1]

والمعنى من ذلك يقول: "جاروه بما يستحق على طريق العدل إلا أنّه أستعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان، وفي مثل هذا تقول العرب: (الجزاء بالجزاء) أما الأوّل فليس بجزاء، وإنّما هو على مزاوجة الكلام."[2] إلا أنّ قول العرب هذا يأتي دون بلاغة القرآن الكريم.

–**"المناسبة:** الذي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد، والشاهد من القرآن ما جاء في قوله عزَّ و جلَّ:"**ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم** ﴿١٢٧﴾ " (التوبة : 127).

والمعنى هنا أنّه جونس بالانصراف عن الذّكر،صرف القلب عن الخير و الأصل فيه واحد و هو الذهاب عن الشيء، أي أنّهم ذهبوا عن الذّكر، مع ذهاب الخير عن قلوبهم."[3]

ســابعًا: التصريـف:

وهو عنده على ضربين أما "الأوّل فهو تصريف المعنى في المعاني المختلفة كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المتعددة، وهو عقدها به على جهة المعاقبة، مثل تصريف لفظ (المُلْك) في معاني الصفات، فصرِف في معنى مَالِك، ومَلَكَ، ومَلِيك، وأيضا في معنى التَمْلِيك، وَالتَمَالُك، وَالإِمْلاَك، وَالتَّمَلُّك، ... ثمّ إنّ هذا الضرب من التصريف فيه من البيان العجيب ما يظهر فيه المعنى، بما يكتنفه من المعاني التي تظهر وتدل عليه."[4]

---

[1] - ينظر، الرّماني، مرجع سابق، ص 99.

[2] – عبد العزيز عرفة، مرجع سابق، ص 335 – 336.

[3] – الرّماني، المرجع نفسه، ص 100.

[4] – عبد العزيز عرفة، المرجع نفسه، ص337 (بتصرف).

أما عن الضرب الثاني فهو "تصريف المعنى في الدلالات المختلفة، فقد ورد في القرآن في غير قضية، فيضرب مثالا بقصة موسىU ويقول أنّها ذكرت في سورة الأعراف، وفي طه، وفي الشعراء... وغيرها، ثمّ كان لهذا الذّكر وجوه من الحكمة تتجلّى في:

- التصرّف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة.
- تمكين العبرة والموعظة.
- حل الشبهة في المعجزة."[1]

ثـامنًا: التضميـن:

"وهو حصول المعنى في الكلام من غير ذكر له باسم أو صفة هي عبارة عنه، ويدلّ عليه الكلام دلالة إخبار أو دلالة قياس، وقد أتى التضمين عند **الرّماني** على وجهين:

– **الأوّل:** تضمين توجبه البنية، فالصفة بمعلوم يوجب أنّه لابد من عالم، وكذلك مكرم.

– **أما الثاني:** هو الذي يوجبه معنى العبارة من حيث لا تصح إلا به، كالصفة بقاتل يدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل، ولا مقتول، فهو إذن على دلالة التضمين."[2]

وعلى ذلك فإنّ "كل آية من آيات الذّكر الحكيم لا تجدها تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة، ومن ذلك قول باسم **الله الرَّحمن الرَّحيم**، " قد تضمّن التعليم لاستفتاح الأمور على التبرّك به والتعظيم **لله** تعالى بذكره، مع الاعتراف بالنعمة ...وأنّه ملجأ الخائف."[3]

تـاسعًا: بـاب المبـالغة:

"وهي الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللّغة لتلك الإبانة"[4] حيث نجدها تتجلى لديه على ضروب نذكرها كما يلي:

---

[1]- الرّماني، مرجع سابق، ص 102.

[2]- ينظر، المرجع نفسه ، ص 102- 103.

[3]- عبد العزيز عرفة، مرجع سابق، ص 338 .

[4] - ينظر، الرّماني، المرجع نفسه، ص 104.

1- "**المبالغة في الصفة المعدولة** مثل **غفَّار**، معدول عن غافر للمبالغة، كما في قوله تعالى: "**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴿٨٢﴾** " (طه : 82).

2- "**إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة** ومثال ذلك، قوله تعالى: " **فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴿٢٦﴾** " (النحل :16). أي أتاهم بعظيم بأسه فجعل ذلك إتيانًا له على المبالغة." [1]

3- "**المبالغة بالصيغة العامة في موضع الخاصة**، لقول القائل: أتاني النّاس، وهنا ربما لم يأته إلا خمسة فقط فاستكثرهم وبالغ في العبارة عنهم.

4- **إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة** نحو قوله جلّ شأنه:"**وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴿٤٠﴾** " (الأعراف : 40)."[2]

5- "**إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة** في العدل والمظاهرة في الحجاج ومن ذلك قوله تعالى:" **وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾** " (سبأ : 24).

6- **حذف الأجوبة للمبالغة** والشاهد قوله تعالى:"**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾**" (الأنعام : 27)." [3]

عـاشراً: البيـان:

أما البيان "فحدّه هو الإحضار لما يظهر به تميّز الشّيء من غيره في الإدراك، وقد قسّمه **الرّماني** هو الآخر إلى أقسام هي: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة، وفي هذا السياق نجده يقسّم الكلام إلى

[1] - ينظر، الرّماني، مرجع سابق، ص 104- 105.
[2]- ينظر، المرجع نفسه، ص 104 - 105.
[3]- عبد العزيز عرفة، مرجع سابق، ص 339.

قسمين أحدهما كلام يظهر به تميّز الشّيء من غيره، فهو بيان. أما الثاني فهو كلام لا يظهر به تميّز الشّيء فهو ليس ببيان، فشبّهه بالكلام المخلط الذي لا يفهم به معنى."[1]

ثمّ إنّ "البيان في الكلام لا يخلو من أن يكون باسم أو صفة أو تأليف من غير اسم للمعنى أو صفة. أما عن حسن البيان في الكلام فهو عنده على مراتب: أعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النّظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللّسان وتتقبّله النّفس، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة."[2]

وقد نوّه **الرّماني** إلى أنّ القرآن كلّه نهاية حسن البيان، ونراه يسوق عديد الشواهد القرآنية في هذا الباب ومنها قوله تعالى:"**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴿٧١﴾ " (الزخرف :71). وهذا أشدّ ما يكون من الترغيب."[3]

[1]- الرّماني، مرجع سابق ، ص 106.

[2]- عبد العزيز عرفة، مرجع سابق، ص 341.

[3]- الرّماني، المرجع نفسه، ص107- 109.

ب. الخطّــابي (388هـ).

هو "**أبو سليمان أحمد ابن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب البستي**، والمعروف **بالخطّابي**، كان فقيهًا، محدثًا وأديبًا وشاعرًا ولغويًا، أخذ اللّغة عن **أبي علي إسماعيل الصفّار**، ومن أشهر تصانيفه (أعلام السنن لشرح صحيح **البخاري**)، (معالم السنن في شرح سنن **أبي داوود**) و(غريب الحديث)، و(البيان في إعجاز القرآن)."[1]

ويعدّ **الخطّابي** من أعلام الفكر الإسلامي في القرن الرابع الهجري الذين امتازت كتاباتهم بغزارة المادة، وعمق الفكرة ودقة الاستنباط، مع روعة البيان. وقد جمع **الخطّابي** بين البلاغة وعلم الكلام، فألّف رسالته (البيان في إعجاز القرآن) مبتدئاً إيّاها بقوله:" قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كل مذهب من القول وما وجدناهم – بعد- صدروا عن ريّ وذلك لتعذّر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته."[2]

وقد رأى **الخطّابي** أنّ "بلاغة القرآن ترجع إلى جمال ألفاظه وحسن نظمه، وسموّ معانيه، وتأثيره في النّفوس وفي هذا نجده يقول: واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزًا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني."[3]

ويتّضح للمتأمّل في فحوى رسالة البيان **للخطّابي** تلك الموازنة والاستفادة من النصوص الشّعرية والملاحظات البيانية في الحديث عن أسلوب القرآن الذي نجده يقول عنه: "إنّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ومنها:

1. البليغ الرّصين الجزل، وهو أعلى طبقات الكلام وأرفعه.

---

[1]- جيلالي أمينة حورية، مرجع سابق، ص38.

[2]- أبو سليمان الخطّابي، البيان في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، للرّماني و الخطابي و الجرجاني، ت.محمد خلف الله و محمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط 3 ، ص 21.

[3]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 129.

2. الفصيح القريب السهل، وهو أوسط الكلام وأقصده.

3. الجائز الطلق الرّسل، وهو أدنى الكلام وأقربه."[1]

وقد اعتبر هذه الثلاثة "أقسامًا للمعاني، الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذي لا وجود له في القرآن بالتأكيد، ثمّ إنّ بلاغات القرآن قد حازت من كل قسم حصة وأخذت من كل نوع شعبة، لينتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وكان اجتماعهما في نظمه فضيلة خصّ بها القرآن، يسّرها **الله** سبحانه بلطيف قدرته ليكون آية بيّنة لنبيّه ρ ".[2]

"فلا يقدر أي أحد من البشر على الإتيان بمثله، ثمّ إنّ هذا التعذّر يأتي لأمور قد حدّدها **الخطّابي** في بيانه منها أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللّغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها.إذ لا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، وعليه لا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النّظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصّلوا باختيار الألفاظ عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله."[3]

وفي هذا نجده ينوّه على أنّ "الكلام يقوم على ثلاثة أشياء هي: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. فإذا تأمّلنا القرآن وجدنا هذه الأمور كما يقول **الخطّابي** في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ثمّ لا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشدّ تلاؤمًا وتشاكلًا من نّظمه، أما المعاني فتشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها، والترقّي إلى أعلى درجات الفضل."[4]

[1]- أبو سليمان الخطّابي، مرجع سابق ، ص 26.

[2]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق ، ص 132- 133.

[3]- أبو سليمان الخطّابي، المرجع نفسه ، ص 26 - 27 (بتصرف).

[4]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، المرجع نفسه ، ص 133.

ومعنى هذا أنّ وجه الإعجاز عند **الخطّابي** يكمن في النّظم مع صحة المعاني وفصاحة الألفاظ.

وللإشارة فإنّ **الخطّابي** لم يبحث موضوعات البلاغة كما بحثها **الرّماني** مثلما سبق وأن أشرنا، إلا أنّه اعتبرها ضمن قضية الإعجاز في المقام الثاني بعد النّظم.

هذا وقد أفرد ضمن حديثه عن البلاغة كلامًا عن قضية من القضايا البارزة في رسالة البيان، ألا وهي عمود البلاغة، وفي حدّه لها يقول: "عمود البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص والأشكل به، الذي إذا أبدل في مكانه غيره جاء منه: إماّ تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرّونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ثمّ إنّ في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني."[1]

ضف إلى ذلك فإنّ معنى الكلام إنّما يقوم على معرفة مواقع تلك الألفاظ في العبارات، وعليه فإنّ الإعجاز ليس في اللّفظ وإنمّا في تأليفه. وفي هذا المعنى يقول:" ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي منها يتركّب الكلام دونما يتضمّنه من ودائعه التي هي معانيه وملابسه التي هي نظوم تأليفه."[2]

وفي هذا نجده يوضح سر الإعجاز الذي هو "الجمع بين المعاني والموضوعات إلى ذلك النّظم البديع والتأليف المتلائم واضعًا كل شيء منه موضعه الذي لا يرى في صورة العقل أمر أليق منه، ومن المعلوم أنّ الإتيان بكل هذا أمر تعجز عنه قوى البشر وبذلك عجز الخلق عن معارضة القرآن الكريم."[3]

ثمّ إنّ في هذه النظرات التي قدّمها **الخطّابي** في رسالته، وكذا التحليل البديع الذي ساقه في محتواها يدلّ على أنّ "العرب لم يصنعوا في معارضة كلام **الله** تعالى شيئاً يذكر، مع أنّ **الخطّابي** في وقفاته تلك ينم على ذوق فنّي ونزعة أدبية اتّخذت من النصوص سبيلا لدراسة أساليبها والموازنة بينها.

---

[1]- أبو سليمان الخطّابي، مرجع سابق ، ص 29.

[2]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 134 (بتصرف).

[3]- المرجع نفسه، ص 130.

وتلك خطوة لفتح الطريق أمام المهتمين بدراسة أسلوب القرآن **كالباقلّاني**، ومن عني بالموازنة **كالآمدي**، إضافة إلى إسهامها في تجلّي فكرة النّظم لدى **عبد القاهر الجرجاني** التي بنى عليها رأيه في إعجاز القرآن المجيد."[1]

ج. القاضي عبد الجبـار (415هـ).

إذا أتينا إلى القاضي **عبد الجبار الأسد آبادي** وكتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل)، وجدناه يتحدّث عن إعجاز القرآن في محتوى الجزء السادس عشر، وفيه أظهر المؤلّف إعجاز القرآن بالنّظم والفصاحة إذ يقول: "اعلم... أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنّما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع."[2]

وفي حديثه عن فكرة النّظم في القرآن نجده يقدّم رأيه فيها من خلال قوله:"إنّ بلاغة القرآن والفصاحة إنّما تقومان على ضّم الكلمات وتقاربها، أي في نظمها وتآلفها" وهذا الذي بلور فكرة النّظم لدى **عبد القاهر الجرجاني** فيما بعد، فتبنّى هذه الفكرة ليقيم عليها نظريته.

وتتلخّص جهوده في الإعجاز في أنّ النّظم أي الطريقة، لا يتعلّق بالإعجاز إلا إذا انضافت إليه الفصاحة التي ترتبط بحسن المعنى وجزالة اللّفظ، والنّظم عنده هو النّسق والطريقة، واختصاص القرآن بالفصاحة والنّظم وانفراده بهما يوجب كونه معجزًا."[3]

---

[1]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 139 (بتصرف).

[2]- نادية الموسوي، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند السيوطي في كتابيه الإتقان ومعترك الأقران، دار الصفاء، عمان، ط 1، 2014م-1435هـ- ص 25.

[3]- جيلالي أمينة حورية، مرجع سابق، ص 47.

وفي هذا الشأن تتجلى لنا قضية أخرى من قضايا البلاغة في عصر **الباقلّاني** ألا وهي:

3-2.قضيــة الــنّظم:

تعد قضية النظم من بين القضايا البلاغية الهامة التي حظيت باهتمام وعناية العلماء، ثمّ إنّ النّظم كما سبق وأن أشرنا إليه كسمة من سمات الأسلوب القرآني، ضف إلى ذلك فإنّ" النّظم والرّصف المتفرّد، والبناء المتلاحم من أخصّ خصائص القرآن الكريم، وأدق صفاته، فالنّظم القرآني نظم شديد التّرابط، والتناسب والانسجام فلا اختلاف فيه ولا تنافر، لأنّ القرآن هو أحسن الحديث وأبلغه." [1]

وقد تناول العلماء موضوع النّظم في كلامهم عن قضية الإعجاز، فعدّه الكثيرون وجهًا من وجوهه، وأنّ في النّظم يكمن سر الإعجاز البلاغي،" وإذا كان الإعجاز مرتبطًا أساسًا بمعرفة النّظم، فلأنّه العلم الذي يهيئ الفرد لفهم البيان والإعجاز في القرآن، ويجعله يقتنع بالحجة بأن القرآن معجز بمعانيه وكلماته وحروفه وتركيبه."[2]

"وقد اجتهد أحد البلاغيين في بيان تراكيبه بالدّرس والتّحليل ليصبح هذا العلم منسوبًا إليه، ويذكر بذكره، ولا يدرسه باحث إلّا وكان **عبد القاهر الجرجاني** شاهدًا في دعواه، فكان له كبير الفضل في إسراء قواعد هذا العلم والمضيّ إلى تطوير فكرة النّظم لتصبح على يديه نظرية لها قواعد وأسس تقوم عليها."[3]

ومن المسائل التي عني بها **عبد القاهر** في النّظم " تلك التغيّرات التي تطرأ على التركيب في الذّكر والحذف، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والتعريف والتنكير، والإظهار والإضمار، والتصريح والكناية، والحقيقة والمجاز، وهي ضروب من الأساليب يشكل النّحو فيها عنصرًا بارزًا لإعطائها الصورة المكتملة."[4]

---

[1] – جمال الدين شريف، جمال النّظم القرآني، مجلة الداعي الشهرية، دار العلوم ديو بند، أبريل – ماي 2012م، ع: 5 – 6، س: 36.

[2] – محمد الحجوي، في رحاب القرآن الكريم، دراسة في البيان والتراكيب، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 2010م، ص 128.

[3] – المرجع نفسه، ص 128.

[4] – المرجع نفسه، ص 128.

ثمّ إنّ الإمام **الجرجاني** قد" احتج على عبقرية لغة القرآن في نظرية النّظم حيث نصّ على وجوه من الدّقة في التركيب كقوله تعالى:" **وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا** ۞ " (مريم: 04) .

وعنها يقول: واعلم أنّ في الآية شيئًا آخر من جنس النّظم، وهو تعريف الرأس بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزيّة، ولو قيل: واشتعل رأسي، فصرّح بالإضافة لذهب بعض الحسن.."[1]

ضف إلى ذلك فإنّ الإعجاز عند **الجرجاني** "لا يرتكز في المفردات المجرّدة، بل في النّظم الذي هو السمة التي بها يتفاضل البلغاء، فجودة التراكيب وجمال النظوم يرفع الكلام درجات عالية، فإذا انسجمت المفردات وتناسبت الكلمات، وقوية الرابطة حتى تناتج الفضل ما بينها وحصلت المزيّة من مجموعها، فتلك هي البلاغة الكاملة."[2]

ثم نجد **الجرجاني** في دراسته للإعجاز" لا يقتصر على ترابط الألفاظ المفردة فحسب، بل يتعدّاه إلى الربط بين الجملة والجملة وهذه المفردات لم تأخذ دقة معناها إلّا عندما نظمها السيّاق وجمعها النّظم والتركيب، الذي هو من خصائص القرآن التي تفرّد بها على غيره من الكلام."[3]

[1] – محمد الحجوي، مرجع سابق، ص 128 – 129.

[2] – جمال الدين شريف، مرجع سابق.

[3] – جمال الدين شريف، المرجع نفسه.

3-3. قضية المجـاز:

وهي من القضايا البلاغية التي شغلت اهتمام البلاغيين واللّغويين والأصوليين في زمن **الباقلّاني** ثم إنّ"المجاز يعد فنًا ولونًا من الألوان البيانية المعروفة، إلّا أنّه يحتل مركز الصدارة في إطار هذه الفنون."[1] " أما المجاز فهو مأخوذ في اللّغة من الجواز، وهو الانتقال من حال إلى حال ."[2]

أو هو اللّفظ المتواضع على استعماله والمستعمل في غير ما وضع له، وقد " بدأ الاهتمام بالظاهرة المجازية في مطلع القرن الثالث الهجري، وأول من استخدم لفظة (المجاز) هو **أبو عبيدة**، حيث صنّف كتابًا في القرآن سمّاه (مجاز القرآن)، ولم تكن معالجته خالصة لبيان الدلالة المجازية، وإنما كان يقصد بالمجاز معناه اللّغوي."[3]

وقد توالى الاهتمام بدراسة المجاز ليصنّف العلماء مصنّفات عالجوا فيها هذه القضية، "فقد ألّف **ابن قتيبة** كتابه (تأويل مشكل القرآن) الذي ردّ فيه على الذين نفوا المجاز في القرآن وقد اتّسمت دراسته بالنضج في هذا الباب."[4]

أمّا "**الشريف الرّضي** فقد ألّف كتابي(تلخيص البيان في مجازات القرآن)، و(المجازات القرآنية) واستخرج الآيات الكريمة التي تشمل المجاز وكان مفهومه لديه يمثل الصور البيانية (التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية)."[5]

إضافة إلى هذا فإن "الدراسة المجازية قد أخذت الصورة النهائية على يد الإمام **عبد القاهر الجرجاني** فقد سلط الضوء على المجاز في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) حتى بلغ البحث المجازي على يديه مرحلة النضج والتجديد البلاغي."[6]

---

[1] – نادية الموسوي، مرجع سابق، ص 211.

[2] – مولاي ميموني، الحقيقة والمجاز (الحلقة الثالثة)، منبر حر للثقافة والفكر والأدب، السبت 26 مارس2011م.

[3] – نادية الموسوي، المرجع نفسه، ص 211.

[4] – المرجع نفسه، ص 212.

[5] – المرجع نفسه، ص 212.

[6] – المرجع نفسه، ص 212.

فكان "المجاز لديه على نوعين:

– **المجاز اللّغوي**: وهو اللّفظ المستعمل في غير ما وضع له في أصل اللّغة لملاحظة العلاقة بين المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي،كقولنا: اليد مجاز في النعمة، والأسد مجاز في الإنسان، وهو على أربعة أقسام"[1]:

1– "مجاز مفرد مرسل: ومثاله من القرآن قوله تعالى:" **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ** ﴿١١٨﴾ " (آل عمران: 118).

والمجاز في الآية يظهر في لفظة (البَغضاء) وهو مجاز عن الكلمات الدالة على الكراهية."[2]

2- **"مجاز مفرد بالاستعارة.**

3- **مجاز مركّب مرسل.**

4- **مجاز مركّب بالاستعارة.**

أمّا القسم الثاني من المجاز وهو

– **المجاز الحكمي**: وهو الذي توصف به الجمل في التأليف والإسناد.ثم إنّ فن المجاز أصبح واضح التقسيم بعد أن كان يشمل فنون البيان عامة."[3]

[1] - حورية عبيب، أساليب الحقيقة والمجاز في القرآن (سورة الكهف نموذجا)، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 1428هـ – 2008م، ص 77- 79.

[2] – المرجع نفسه، ص77- 79.

[3] – ينظر، نادية الموسوي، مرجع سابق، ص 213، وحورية عبيب، المرجع نفسه، ص 77.

3-4.قضية البديــع:

وهي من القضايا البلاغية البارزة التي شهدها القرن الرابع الهجري، " والبديع في اللّغة هو الجديد والبارع والعجيب، وقد فهمه العلماء القدامى حيث استدلَّ **ابن المعتز** بأنّ البديع موجود في القرآن واللّغة وأحاديث النّبيρ ، وكلام الصحابة رضوان الله عليهم، والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدّمين.

وبهذا الاستدلال حسم القول في قضية شغلت علماء العربية لفترات من الزمن."[1]

أمّا البديع في عهد **الباقلّاني** "فلا يراد به العلم الثالث من علوم البلاغة تلك التي وضع تقسيماتها **القزويني** (739هـ) فيما بعد في كتابه (الإيضاح..)."[2]

ومن العلماء الذين تكلّموا عن قضية البديع "**قدامة ابن جعفر** في كتابه (نقد الشّعر)، وقد تناول فيه كثيرًا من المحسّنات البديعية بالمعنى العام للبديع، من كون هذه المحسّنات أوصافًا للشّعر، ومنها الترصيع، والتصريح، والغلوّ، والتشبيه، وصحة التقسيم، وصحة التفسير، والمبالغة، والالتفات والإرداف والإشارة...الخ."[3]

كما نجد **الباقلّاني** قد تناول قضية البديع في كتابه (إعجاز القرآن) وعقد فصلا تكلم فيه عن البديع في الكلام.

---

[1] – فاضل عبود، إشكالية البديع وإعجاز القرآن رؤية (الباقلّاني) مثالا، مجلة ديالي، جامعة ديالي، ع 46، 2010م ، ص 281.

[2] – المرجع نفسه، ص281.

[3] – فريد النكلاوي وإسماعيل الأنور، دراسات حول نشأة البحث البلاغي، تطوّره كلية د – إ– ع ،جامعة الأزهر، ص 54.

المبحث الثاني:

☙ منهج الباقلّاني في الدراسة النقدية و البلاغية ❧

1- الباقلّاني ومنهجه النقدي:

"إنّ المتأمّل في مسار النّقد يلحظ أنّه لم يكن في مساقه العام موجهًا إلى خدمة فكرة الإعجاز بالمقارنة بما أصبحت عليه البلاغة، إلا أنّه وباتّصاله بهذه الأخيرة كان من الطبيعي أن يقف النّقد عند تلك الفكرة، أو يجعل وسائله صالحة للوقوف عندها."[1]

وعليه فإنّ "جل العلماء قد أولوا عناية بالغة بمسألة الإعجاز القرآني وكونها تدخل ضمن النّقد فإنّنا نرى جهودهم النّقدية تعد على هامش النّقد الأدبي إذا قيست بجهد الإمام **الباقلّاني** لأنّه العالم الوحيد الذي استطاع أن يفيد إفادة تفصيلية من جهود النّقاد السابقين وأن يطوّر أثناء بحثه لقضية الإعجاز بعض النواحي النّقدية."[2]

وعليه فقد اتضح لدى **الباقلّاني** بعد اطلاعه على جهود العلماء أمثال **الجاحظ، وابن قتيبة وابن معتز، وقدامة، والآمدي،** أنّ فكرة الإعجاز لدى نقّاد الأدب قد سارت على طريقين:

- "الأولى هي الطريق التي سار فيها **ابن معتز وقدامة،** وتبعهما فيها **الرّماني،** ألا وهي تعليل الإعجاز عن طريق البديع، أو دراسة الصور البيانية في القرآن، حيث ألمّ **ابن قتيبة** بأطرافها ضمن كتابه (مشكل القرآن).

- وأما الطريقة النّقدية الثانية فهي مذهب القائلين بالنّظم والتأليف، وهي طريقة **الجاحظ والآمدي** وكذا **الخطّابي**."[3]

---

[1]- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة بيروت، ط4، 1983م - 1404هـ، ص05.

[2]- المرجع نفسه، ص 345 .

[3]- المرجع نفسه، ص 345 .

فقضية الإعجاز لدى **الباقلّاني** "تعدّ من علم الشّعر والأدب، ثمّ إنّ التعرف على طرائق الكلام وكيفية تقلّبه في وجوه الفصاحة والبلاغة، والتعمّل والطّبع، والرويّة والبديهة، وقد عالجها **الباقلّاني** في هذه الحدود، دون أن يداخلها مع علم الكلام وعلم أصول الدّين، إلا ما يمس جوهره لتظل القضية أدبية خالصة."[1]

وفي هذا نجد "المناهج النّقدية ضمن مؤلّفات إعجاز القرآن الكريم قد تعدّدت تبعًا لتعدّد ثقافات النّقاد ومذاهبهم، وقد أدّى هذا الاختلاف إلى تفاوت نظراتهم إلى النّص الأدبي فاختلفت بذلك آراؤهم وأحكامهم، وبالتالي تفاوت وتعدّد مناهجهم."[2]

ومن هذا المنطلق وقبل الحديث عن المنهج النّقدي الذي اعتمده **الباقلّاني** في دراسته المختلفة حري بنا في البداية أن نقف عند معنى (المنهج):

"الذي هو في اللّغة: الطريق الواضح.

-أما في الاصطلاح: فهو الطريقة التي يتّبعها الباحث في بناء بحثه أي إدامة النّظر في بناء الكتاب في الهيكل أو في الخطّة، من البداية إلى النهاية، مع توزيع المادة كلّها في عموم الكتاب وجزئيًا في خصوص فروعه."[3]

ومن بين تلك المناهج نجد "المنهج الاعتقادي في النّقد، وهذا النوع من النّقد تتحكم فيه عقائد وآراء خاصة عند النّاقد، وهو يحمل معنى الميل إلى نزعة خاصة.

وقد اتّخذ **الباقلّاني** من المنهج الاعتقادي طريقًا رسمه لنفسه في عملية التحليل النّقدي للنصوص، وقد طبّق منهجه هذا ببراعة خلال تناوله لقضية الإعجاز القرآني."[4]

---

[1] – محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 2، 1997م، 1418هـ، ص 174.

[2] – عكاب الحياني، السمات الفنية في المنهج النقدي الاعتقادي عند الباقلّاني (دراسة نقدية)، مجلة سر من رأى، كلية التربية، جامعة سامراء، م 8، ع 31، السنة الثامنة تشرين 1، 2013م، ص 200.

[3] – المرجع نفسه، ص 200.

[4] – المرجع نفسه، ص 200.

ضف إلى ذلك "ما امتاز به **الباقلّاني** عن مناصريه بنظرته إلى الكلام النظرة الكلّية التي تتّخذ من السّورة أو القصيدة مجالا للعرض والتحليل."[1]

زيادة على هذا فقد كان "**للباقلّاني** مذهب في النّقد يرجع إلى فهم الأثر الأدبي جملة، وتحليل خصائصه، والموازنة بينه وبين غيره من الآثار الأدبية، وبيان منزلته البيانية والأدبية والفكرية ممّا يظهر بجلاء في كتابه (إعجاز القرآن) الذي ترك آثارًا كبيرة في النّقد الأدبي."[2]

ولازال يعدّ هذا الكتاب من مصادر النّقد وأصوله، الذي تجلى من خلاله منهج **الباقلاني** "في نقد الشعراء أصحاب القصائد الطوال حيث لا ينقد بيتًا أو بيتين من القصيدة بل ينقدها كاملة، مع تبيان رأيه فيها وفي شاعرية صاحبها."[3]

وقد ابتدأ **الباقلّاني** منهجه النّقدي في كتابه (إعجاز القرآن) يتناول بعض الآثار الفنّية الرائعة بالتحليل متمثلة في بعض خطب النّبي محمّد ρ، وبعض فصحاء العرب والبلغاء، هذا من جهة النّثر أما من حيث الشّعر فقد اختار من أفضل ما اتّفق النّقاد على جودته من الآثار الشّعرية القديمة حيث عمد إلى معلّقة **امرئ القيس** وقصائد **البحتري** ينقدها ويحلّلها." [4]

[1] – أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 160.

[2] – محمد عبد المنعم خفاجي، الفكر النقدي والأدبي في القرن الرابع الهجري، رابطة الأدب الحديث، ص 89.

[3] - المرجع نفسه، ص 89.

[4] – عكاب الحياني، مرجع سابق، ص 201.

1-1.الباقلاني ونقد الكلام:

إنّ المطّلع على إرث **الباقلّاني** "يجد في كلامه أفكاراً تتصل بنقد الكلام وبلاغته، ولا يجدها في كتب النّقد والبلاغة الأخرى، حيث يرى أنّ الكتب التي درست نقد الشّعر وعياره ووزنه بميزانه ومعياره لم تكن مستوفاة." [1]

"فالنّقد عنده كان من الأمور الصعبة التمييز، والاتّفاق في النّقد أمر صعب لأنّ النّاس متفاوتون في المعرفة ولو اتّفقوا فيها لم يجز أن يتّفقوا في معرفة هذا الفن لاتّصاله بعلوم كثيرة المذاهب." [2]

وفي هذا نجد **الباقلّاني** يقول:"فإذا كان نقد الكلام كلّه صعبًا وتمييزه شديدًا، والوقوع على اختلاف فنونه متعذّرًا، وهذا في كلام الآدميين فما ضنّك بكلام رب العالمين."[3]

ضف إلى ذلك فإنّ "نقد الكلام لا يأتي إلا للعارف بالصنعة، وفي هذا نجده يكرر الدعوة إلى المعرفة والتدرّب في هذا الفن، إذ ينبغي للذي لم يكن كذلك أن يجلس مجلس المقلّدين ولا يعطي أحكامًا، لأنّه في هذا غير قادر على التمييز بين الكلام." [4]

وفي نفس السّياق يقول:"أنّ العالم لا يشذّ عنه شيء من ذلك ولا تخفى عليه مراتب هؤلاء... حتّى أنّه إذا عرف طريقة شاعر في قصائد عدة فأنشد غيرها من شعره لم يشك أنّ ذلك من نسجه ولم يرتب أنّها نظمه...ولا يخفى على النّاقد العالم معرفة سارق الألفاظ ولا سارق المعاني ولا من يخترعها، ولا من يلم بها ولا من يجاهر بالأخذ ممن يكاتم به." [5]

وعليه فإنّ "تمييز الكلام من مهمة النّاقد العالم الذي يميّز بين الأساليب ويعرف الجيّد من الرّديء وهي مهمة صعبة تحتاج عناية وروية وثقافة واسعة.

---

[1]- محمد أبو موسى، مرجع سابق ص 174.

[2]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 157.

[3]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 300.

[4] - أحمد مطلوب، اتجاهات النقد، المرجع نفسه، ص 157.

[5]- ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص 120-121.

وقد أدرك **الباقلّاني** ذلك، فنقد الكلام على استحياء ومسّه مسًا رقيقًا وطاف بفنونه المختلفة ليظهر أنّ القرآن أروع وأنّ آياته أرفع." [1]

وقد عرض **الباقلّاني**"لمذاهب الاختيار في الشّعر، وهي تعني مذاهب النّقد في التراث الأدبي، وقد أوجز الكلام في ذلك منوّها إلى هذه المذاهب وتنوّعها بتنوّع أسس الاختيار إنّما هي في باب المفاضلة وتكون بعد الاتفاق على أنّ هذا الشّعر يدخل في دائرة الشّعر الجيّد، فيكون الاختلاف تحديد درجات الفضل، وزيادة على هذا يكون هناك اتّفاقًا على تحديد ما هو دون الجيّد، وكأنّ لنقاد الشّعر قدرًا مشتركًا هو موضع اتّفاقهم." [2]

وفي قياس أهل صنعة الشّعر بغيرهم نجد **الباقلّاني** يقول:" وهذا كما يميّز أهل كل صناعة صنعتهم فيعرف **الصيرفيُّ** من النّقد ما يخفى على غيره ...وإن كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر، وربما اختلفوا فيه..."[3]

ومن مذاهب الاختيار التي ذكرها هي:

– "**المذهب الأول**: الاختيار الذي أساسه متانة الكلام ورصانته، فالنّاظر إلى الشّعر لا ينظر في غرضه ولا معانيه، وإنّما من جهة فحولة الكلام، وقوّة أسره، وشدّة تلاحمه، ووكادة بناءه."[4]

– "**المذهب الثاني**: وهو ما ينظر فيه إلى الشّعر من حيث كثرة ماءه وروعة بهجته، وروائه وسلاسة مأخذه، وسلامة وجوهه وما يتّصل ببهجة صوغه ورقّة نغمه، وانسياب لحنه، مما نراه في القصائد والأشعار السائرة، التي تعانق النّفس بعذوبة ألفاظها، وسلاسة ألحانها." [5]

[1] – أحمد مطلوب، اتجاهات النقد، مرجع سابق، ص 159– 160.

[2] – محمد أبو موسى، مرجع سابق ، ص 256.

[3] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 113.

[4] – محمد أبو موسى، المرجع نفسه ، ص 258.

[5] – المرجع نفسه، ص 258.

– "**المذهب الثالث**: وهو الذي ينظر فيه إلى الشّعر من حيث غرابة ألفاظه، وبعد معانيه وغموضها، وفيه يقول **الباقلّاني**:... كما قد يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سهل على اللسان وسبق إلى البيان." [1]

– "**المذهب الرابع**: وقد حدّده الإمام بما روى من قول **عمر** ψ في شعر **زهير** أنّه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، ومن خلال هذا يكون تحديد المذهب الذي ينظر إلى الشّعر لا من حيث بنيته اللّفظية وإنّما من حيث مضمونه الأخلاقي وأثره في صقل النفوس وتهذيبها، مع القصد في تناول المعاني والبعد عن الإفراط وكثرة المبالغة." [2]

– "**المذهب الخامس**: وهو مذهب الغلو والإفراط حتى ربما قالوا: أحسن الشّعر أكذبه، وقد حرّر العلماء هذا المذهب وأبانوا المراد بالكذب بأنّه غالبًا ما يراد به تعليل الأشياء بعلل تقوم في نفس الشّاعر من نسيج إحساسه ورؤيته للشيء، وأنّه من باب التأويل الشّعري للأشياء، وهو من جوهر الأدب." [3]

–"**المذهب السادس**: وهو الوسط بين كل مذهبين من هذه المذاهب السابقة الذّكر، فهو مذهب التوسّط بين المتانة في الألفاظ والسلاسة فيها، وبين الإفراط في المعاني والاقتصاد فيها.

– **المذهب السابع**: وهو مؤسّس على الصنعة والتعمّل وحسن التّأتي في سياسة المعاني والألفاظ[4] والمراد بالصنعة هو الإتقان والإحكام والفطنة في المراجعة والصقل، وليس التكلّف في الصياغة وقيادة المعاني على غير وجهها."

[1] – محمد أبو موسى، مرجع سابق ، ص 258.
[2] – المرجع نفسه، ص 260.
[3] – المرجع نفسه، ص 266.
[4] – المرجع نفسه، ص 270.

وفيه يقول **الباقلّاني**:"...ما كان أكثر صنعة وألطف تعمّلا، وأن يتخيّر الألفاظ الرشيقة للمعاني البديعة و القوافي الواقعة." [1]

وبعد ذكر أهم ما استنبط من مذاهب في هذا الباب نجد **الباقلّاني** قد سعى إلى رسم منهجه من خلال نقده لشّعر **امرئ القيس** و**البحتري**، وكان هذا تمهيداً للحديث عن نظم القرآن، حيث كانت له فيما بعد موازنة بين بلاغة مختارات الشّعر الفصيح وبلاغة كتاب **الله** تعالى.

[1] – محمد أبو موسى، مرجع سابق، ص 270.

1-2.نقد الباقلّاني لمعلّقة امرئ القيس:

لقد عمد **الباقلّاني** إلى دراسة قصيدة **امرئ القيس** لمكانتها في الأدب العربي، وقد كان الإمام شديد الإعجاب بها، وفي ذلك نجده يقول راسمًا منهجه النّقدي:" إذ أردنا تحقيق ما ضمنّاه لك فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة متّفق على كبر محلّها وصحة نظمها وجودة بلاغتها ورشاقة معانيها وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها مع كونه من الموصوفين بالتقدّم في الصناعة." [1]

ثمّ إنّ تحليله لقصيدة **امرئ القيس** كانت بهدف إظهار نظم القرآن وبديع عباراته وأسلوبه فاستدعى منه ذلك تبيان الخلل والتفاوت في نظم المعلّقة، حيث قال:"... فنقفك على مواضع خللها وعلى تفاوت نظمها وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدّة تعسّفها، وبعض تكلّفها وما تجمع من كلام رفيع يقرن بكلام وضيع، وبين لفظ سوقي يقرن بلفظ ملوكي." [2]

وقد طبّق منهجه النّقدي من خلال تحليله ونقده لمعلّقة **امرئ القيس**، القائل في مطلعها:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيب وَمنْزِلِ ** بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ**

فتوضح فالمقراة لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ** لما نسجتها من جنُوب وشمْــأَلِ."**[3]

وفي كلامه عن المعلّقة يقول:" إنّ هذه القصيدة ونظرائها تتفاوت في أبياتها تفاوتًا بيّنًا في الجودة والرداءة، والسلامة والانحلال والتمكّن والاستصعاب، والتمهّل والاسترسال..." [4]

وفي نقده للبيتين السابقين نجده يذكر أنّ "ليس فيهما شيء قد سبق في ميدانهم شاعرًا ولا تقدّم به صانعًا، ففي لفظه ومعناه خلل فأول ذلك أنّه:

---

[1] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 156.

[2] – المرجع نفسه، ص 156.

[3] – أحمد مطلوب اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 161.

[4] – عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، ص 93.

استوقف من يبكي لذكر الحبيب وذكراه لا يقتضي بكاء الخلي، ومن الفساد أن يكون بكاء هذا الصاحب بكاء عاشق لأنّه ينبئ عن عدم الغيرة على الصاحبة." [1]

ثمّ إنّ في البيتين كما أشار **الباقلّاني** "ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية تلك الأماكن من (الدخول، وحومل، وسقط اللّوى) فهذا من التطويل، وهذا عيّ إن لم يفد.

أما قوله (لم يعف رسمها) وهذا من مساوئه لأنّه إن كان صادق الودّ فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جدّة عهد و شدّة وجد." [2]

وعلى نفس الأسلوب نقد **الباقلّاني** تتمة أبيات معلقة **امرئ القيس** مستعرضًا عديد القضايا اللّفظية والمعنوية والبلاغية والنحوية.

[1] – أحمد مطلوب اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق ، ص 161 (بتصرف).

[2]– المرجع نفسه، ص 161.

1-3. نقده لقصيدة البحتري:

لقد اختار **الباقلّاني** قصيدة **البحتري** المشهورة وطبّق عليها منهجه فقال عن البيتين:

أهلاً بذلِكُـــم الخيـــال المُقْبِـــلِ ** فَعَل الّذي نَهْواه أولم يفعـــــل**

برقٌ سَرَى في بَطْنِ وَجْرَةَ فاهتدت ** بسَنَاهُ أَعْنَاقُ الرّكَـابِ الضُّلَّـــلِ.**

إنّ في البيت الأوّل قوله (ذلكم الخيال) يحمل ثقل روح و تطويل حشو،وغيره أصح له وأخف." [1]

ثمّ في قوله: "(فعلى الذي نهواه أو لم يفعل) ينقده **الباقلّاني** من حيث أنّ الكلمة ليست شريفة ولا لفظة ظريفة، وإن كانت كسائر الكلام، وأمّا البيت الثاني فهو عظيم الموقع في البهجة وبديع المأخذ حسن الرواء أنيق المنظر والمسمع، وعليه فقد اتّبع **الباقلّاني** الأسلوب ذاته في نقد أبيات القصيدة، مع التّحدث عما فيها من حشو وإخلال بالمعنى النّظم، وتعقيد في المعنى، بالإضافة إلى ما فيها من الجودة." [2]

[1] – محمد أبو موسى، مرجع سابق، ص 311 – 312 .

[2] – أحمد مطلوب ، إتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق ، ص 165.

1- 4.تحليله للسّورة من القرآن الكريم:

لقد طبّق **الباقلّاني** منهجه على كتاب **الله** تعالى فنراه يوضّح ما فيه من روعة النّظم وجودة التأليف مما لا يقدر عليه بشر، مع أنّ روعة القرآن جلية لا تحتاج توضيحًا البتّة، وفي هذا نجده يقول:" فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإنّ العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره وتظل دون وصفه." [1]

وقد دعى **الباقلّاني** إلى دراسة سور القرآن كاملة، لتّتضح الصورة و تكتمل و بهذا تبيان للإعجاز حيث يقول:" فإذا كانت الآية تنتظم في البديع وتتألّف من البلاغات فكيف لا تفوت حد المعهود...وكيف لا تحوز قصب السّبق ولا تتعالى عن كلام الخلق؟. " [2]

كما نجده يدعو إلى "تأمّل السّورة من القرآن تامة كاملة ومعرفة قصصها ومراعاة ما فيها من براهين وفي هذا نراه قد قام بتحليل سورتي النّمل وغافر كاملتين، في تأمل في الوحدة الفنّية والموضوعية فيهما فتناول سورة النّمل من ناحية النّظم، وصلته بالفاصلة، وكذا كشف مواطن الجمال في السّورة وشرحها." [3]

وبعد تنقله بين آيات سورة النّمل والنّظر إليها كلمة كلمة وآية آية نجده يبيّن أنّ القرآن هو من عنده فقال:" **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ۝٦ " (النمل : 06)."[4]

ليصل بذلك إلى قصّة موسى υ الذي رأى نارًا فقال لأهله من خلال الآية:"**إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ۝٧"

(النمل : 07).

---

[1] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 182.

[2] – أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 167.

[3] – عكاب الحياني، مرجع سابق، ص 212.

[4] – أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، المرجع نفسه، ص 167.

وقال في سورة طه في نفس القصة:" **إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى** ﴿١٠﴾ "(طه : 10).

ثمّ قال:" **فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴿٨﴾ " (النمل : 08).

"فانظر إلى ما أجرى له الكلام الأوّل، وكيف اتّصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حيّة، وجعلها دليلا يدله عليه، ومعجزة تهديد إليه." [1]

ومن خلالها ينبه **الباقلّاني** إلى النّظر في الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفي ما تتضمّنه من المعاني الشريفة، ثمّ ما قرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء ثمّ نراه يدعو القارئ للسّورة أن يرى في آية آية وكلمة كلمة فيها، هل يجدها كما وصفت من عجيب النّظم وبديع الوصف؟." [2]

وبعد ذلك نراه يقول كجواب للسّؤال:" فكلّ كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذ معناها؟.

ثمّ من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصوّر لك الفصل وصلا، ببديع التّأليف وبليغ التنزيل." [3]

"وعلى نفس المنهج نرى **الباقلّاني** يمضي في تحليل سورة (غافر) حيث أنّ هذا النوع من الدراسة لم نألفه عند نقاد تلك الفترة، وهو منهج يولي السّورة التّامة عناية كبيرة، وينظر إليها نظرة متكاملة."[4]

---

[1] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 189 – 190.

[2] – المرجع نفسه، ص 190.

[3] – المرجع نفسه، ص 190.

[4] – أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 169.

والملاحظ من هذا التحليل أنّ **الباقلّاني** قد اهتمّ بنظم القرآن وأعطاه السبق على غيره من نظوم الكلام، فحاول تبيانه من خلال دراسته لما في القرآن من بلاغة وجمال.

وللإشارة فإنّ "تحليله للنّص القرآني كان مخالفا لنمط تحليله للشّعر لأنّه كان يصدر على هذا الأخير أحكامًا نقدية بخلاف نظره للقرآن فهو لا يصدر أحكامًا حوله – ولا يجوز له ذلك – لأنّه هنا بإزاء كلام **الله** تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين أيديه ولا من خلفه." [1]

فالنّاظر للقرآن ليس ناقدًا بل كاشفًا لروعة أسلوب الذّكر الحكيم المعجز في بلاغة نظمه وتأليفه وناظرًا لمواطن الجمال فيه.

[1] – عكاب الحياني، مرجع سابق، ص 213 (بتصرف).

1- 5.الموازنة عند الباقلّاني:

إنّ الموازنة عنده هي سبيل معرفة جودة الكلام وروعته، وقد اتخذها سبيلا إلى تقريب إعجاز القرآن وفي ذلك يقول رحمه **الله** تعالى:" فإذا أردنا أن نفتح له بابًا ليعرف به إعجاز القرآن ونعرض عليه الأساليب، ونصوّر له كل قبيل من النّظم والنثر...ويقع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية....الجامع بين الحكم والإخبار عن الغيوب،...والمستوعب بجلية اليقين...ونعمد إلى شيء من الشّعر فنبيّن وجه النقص فيه وندل على انحطاط رتبته حتى إذا تأمل ذلك وتأمّل ما نذكره من تفصيل وإعجاز القرآن وفصاحته ...انكشف وثبت له ما وصفناه لديه."[1]

ويفهم من قوله أن الموازنة بين القرآن وكلام البشر شعره ونثره وبيان النقص والخلل في الكلام البشري يوضّح ويثبت إعجاز القرآن وبيان أسلوبه وعلوّ رتبته في البلاغة والفصاحة.

ثم إنّ **الباقلّاني** "كان من أشهر من اتهِمَ بالتعسّف في نقده للشّعر والنثر، وذلك عند موازنته بين القرآن وشعر **امريء القيس** و**البحتري** وكذا خطب النّبيρ وبعض الصحابة الكرام (رضوان **الله** عليهم."[2]

وهو في "موازنته تلك ليس ملامًا لأنه كان بذلك يدافع عن القرآن الكريم ضد الحاقدين على الإسلام غير أنه في موازنته بين القرآن وكلام **المصطفى**ρ كان أبين أسلوبا وأخف وطأ في كلامه عن الحديث النّبوي الشريف."[3]

وعليه فإن "أول ما يشترطه النظر في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النّبيρ ، وليعرف الفرق بين النظمين والكلامين."[4]

---

[1] - الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 126.

[2] - عكاب الحياني، مرجع سابق، ص 205 (بتصرف).

[3] – المرجع نفسه ، ص 205.

[4] – أحمد مطلوب اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 170.

إذ نجده "يعرض في كتابه بعض الخطب والرسائل للرسول الكريم ρ ، ولزيادة التوضيح أورد خطبًا للصحابة والبلغاء، وكل هذا يؤدي إلى الاعتراف بروعة نظم القرآن وخرقه للعادة بعد أن يكون الدارس قد وقف عند كلام العرب، وعرف ما فيه من تفاوت لا يجده في كتاب ربِّ العالمين."[1]

هذا عن النثر أما إذا عدنا إلى موازنته بين القرآن والشّعر، فإننا نراه "يوجه للشاعرين **امرئ القيس** و**البحتري** نقدًا لاذعًا في سبيل إثبات ما للقرآن من علو شأن في البلاغة والبيان- مع أن ذلك مثبت لا يحتاج إثباتًا – وكذا لمعرفة كوامن إعجازه، إلا أن الإمام **الباقلّاني** برغم ذلك قد نَصَفَ الشاعر الجاهلي الفحْل **امرأ القيس** بقوله: وأنت لا تشك في جودة شعر **امرئ القيس**، ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته."[2]

ضف إلى ذلك فإن **الباقلّاني**" كان مدركًا عدم جواز الموازنة بين القرآن بوصفه نصًا معجزًا والشّعر بوصفه عملا بشريًا، وقد بيّن أنه لا تجوز الموازنة بين القرآن والشّعر."[3]

فأما الموازنة بين شعر و شعر" فهو مما يظهر مزايا الكلام، وخصائصه ويوضح قيمته الفنية."[4]

فقد أورد بعض الأمثلة في موازنته بين شعر **الحسين بن الضحاك** و**أبي نواس** و**ابن الرّومي**.

[1] – أحمد مطلوب اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق ، ص 170.

[2] - عكاب الحياني، مرجع سابق، ص 206.

[3] - المرجع نفسه ، ص 206.

[4] – أحمد مطلوب، المرجع نفسه، ص 172.

1- 6.مآخذ منهج الباقلّاني في كتاب (إعجاز القرآن):

لقد كتب **الباقلّاني** كتابه هذا وقد كان من أكثر الكتب شهرة في بابه، وقد شهد له بالسبق جل العلماء إلا أنّ البعض منهم قد لاحظ عليه بعض المآخذ نذكر منها ما يلي:

يقول **محمود شاكر** في كتابه مداخل إعجاز القرآن:" رضي **الله** عن **أبي بكر الباقلّاني**، فقد جمع في كتابه خيرًا كثيرًا، واستفتح بسليم فطرته أبوابًا كانت قبله مغلقة، وكشف عن وجوه البلاغة حجابًا مستورًا."[1]

وبعد ذكره لهذه الإيجابيات يقول:" ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثارًا متلاحقة فهو بهذه الموازنة التي هاجته كما يقول، قد حملته على هتك الستر عن معلّقة **امرئ القيس**، ليكشف للناس عيبها وخللها، لا ليستخرج منها خصائص بيان القرآن." [2]

ثمّ إذا اتجهنا إلى **مصطفى الرّافعي** نجده يقول عنه ناقدًا:" إن كتاب **الباقلّاني** وإن كان فيه الجيد الكثير، وكان الرجل قد هذّبه وصفّاه، وتصنّع له، إلا أنّه لم يتحاشى وجهًا من التأليف لم يرضه من سواه، وخرج كتابه كما قال هو في كتاب **الجاحظ** (لم يكشف عمَّا يلتبس في أكثر هذا المعنى)."[3]

ويضيف **الرّافعي** إلى ما قاله أن مرجع الإعجاز في كتاب **الباقلّاني**" إلى الكلام، وإلى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول، ونوع وآخر من فنونه، ثمّ إنه قد حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النّظم والنثر، ذهبت بأكثره وغمرت جملته وعدّها في محاسنه وهي من عيوبه."[4]

وفي موضع آخر نجده يقول أنّ **الباقلّاني** رغم ما كان لديه من " سعة الحيلة في العبارة، وبسط اللسان إلى مدى بعيد، إلا أنه قد جاء كتابه وكأنه في غير ما وضع له، وذلك:

- لما فيه من الإغلاق في الحشد.
- والمبالغة في الاستعانة.

---

[1] - محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، دار المدني، جدة، ط 2، 2014م – 1435هـ، ص 182.

[2] - المرجع نفسه، ص 182.

[3] - مصطفى صادق الرّافعي، مرجع سابق، ص 152.

[4] - المرجع نفسه، ص 152.

– والاستراحة إلى النقل."[1]

أما إذا انتقلنا إلى **إحسان عباس** نجده هو الآخر قد أعاب على **الباقلّاني** منهجه في الكتاب ذاكرًا أنّ "هذا المنهج الذي اتّبعه كان فيه خطورة على فكرة الإعجاز، مبيّنًا أنّ المنهج الذي سار فيه الإمام، أي تحليله للقصيدة الواحدة وبيان مبلغ التفاوت فيها غير سليم النتائج لأنه كما يقول **إحسان:** يوحي بالموازنة بين شيئين متباعدين رغم أن **الباقلّاني** حاول جاهدًا نفي الموازنة في قوله: (إن الكلام في الشّعر لا يجوز أن يوازن به القرآن.)"[2]

ثمّ إن خطورة المنهج التي تحدّث عنها **إحسان عباس** إنما تأتي"من محاولة بسط حديث إيجابي عن حقيقة الإعجاز، وينتهي **عباس** في هذا الشأن إلى أن **الباقلّاني** لم يأتي بشيء ذي بال وهو يحاول أن يبين خصائص الآيات القرآنية التي درسها."[3]

وفي موضع آخر نجد **عبد الكريم الخطيب** في كتابه (الإعجاز في دراسات السابقين) قد قدم كلامًا عن **الباقلّاني** جاء فيه أنّه رحمه **الله** "حين يرد موارد القرآن، ويستقي من ينابيعه لا تسعفه قدرته أن يحمل شيئًا يعتد به من روائع القرآن وعجائبه، ولا أن يقع على دلائل الإعجاز اللائحة منه في كل نظر يمتد إليه."[4]

ويضيف على ما قاله أن **الباقلّاني** " كان إذا عرض لآية من آيات القرآن تدفّق بيانه بالمديح والثناء على كل حرف وكلمة وعبارة في الآية، دون إشارة منه إلى موطن الفصاحة ولا إلى مكان الروعة والجمال... فيلقى كل آية بما لقي به أخرى، أي أنه كان في عرضه نوع من التكرار والترديد."[5]

وعلى الرغم من كل هذا إلا أن **الباقلّاني** يبقى علما من أعلام الأمّة له الفضل في إبراز الكثير من المسائل والقضايا ضمن كتابه إعجاز القرآن، وذلك نتاج لفكره الواسع وعلمه المستفيض.

---

[1] – ينظر، مصطفى صادق الرّافعي، مرجع سابق ، ص 153.

[2] – إحسان عباس، مرجع سابق، ص 353.

[3] – ينظر، المرجع نفسه، ص 353.

[4] - عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، دار الفكر العربي، ط 1، 1974م، ص 210.

[5] – المرجع نفسه، ص 210.

2-كتابات الباقلّاني والقضايا النّقدية:

لقد تحدّثت العديد من المصادر عن ذكاء **الباقلّاني**، وسرعة بديهته وعلمه الواسع، كما نجد الكثير من العلماء قد أثنوا على جهوده المضنية في مجال النّقد والبلاغة والإعجاز، فقد وقف حياته للدفاع عن عقيدة السلف والردّ على المخالفين مع نصرة الدّين وخدمة القرآن الكريم.

وعليه فقد أنتجت عقلية **الباقلّاني** وعلمه قائمة كبيرة من المصنّفات، كنّا قد ذكرناها فيما سبق لنا من حديث والجدير بالذكر أنّ معظم المؤلّفات التي أُثِرَت عن الإمام "فقد فُقِدَت ولم يصلنا منها إلا العدد اليسير، ضف إلى ذلك فإنّ ما وجدناه بين أيدينا من إرث **الباقلّاني** قد حُقِّقَ بعضه وبقي البعض الآخر مخطوطًا في دور المكتبات كمكتبة الأزهر في القاهرة والظهرية في دمشق."[1]

ثمّ من أهم الكتب التي وضعها **الباقلّاني** تلك المتعلّقة بقضية الإعجاز القرآني وهي:

كتاب التمهيد، وكتاب الانتصار لنقل القرآن، وكتاب البيان، وكتاب إعجاز القرآن، وسنأتي على ذكر ما حواه كل مؤلّف من قضايا نقدية باعتبار الارتباط الوثيق بين مسألة الإعجاز وتطوّر النّقد وقضاياه.

2-1. كتاب التمهيد:

وضع **الباقلّاني** هذا الكتاب "رداً على الملاحدة والرّافضة والخوارج والمعتزلة، وكان ذلك بناءًا على رغبة الأمير ابن عضد الدولة، بهدف التزوّد بزاد المعرفة في أمور الدّين والدنيا، فجاء" التمهيد" جامعًا مختصرًا لمواضيع شتى في علم الكلام باعتباره مألّفًا من أهم المؤلّفات الكلامية."[2]

وقد طبع هذا الكتاب في سنة (1366هـ) بتحقيق من الأستاذين **محمـود محمّد الخضيري** و**محمّد عبد الهادي أبوريدة**.

[1]- ينظر، سميرة فرحات، مرجع سابق، ص 40.

[2]- المرجع نفسه، ص 83 (بتصرف).

وإذا أردنا أن نعرّف بكتاب (التمهيد) نوجّه أنظارنا إلى ما قاله **الباقلّاني** نفسه حول مؤلّفه هذا مبيّنًا قيمته العلمية ضمن ما جاء في مقدمته:

يقول:" فقد عرفت إيثار سيدنا الأمير... لعمل كتاب جامع مختصر، مشتمل على ما يحتاج إليه في الكشف عن معنى العلم وأقسامه، وطرقه ومراتبه، وضروب المعلومات، وحقائق الموجودات، وذكر الأدلّة على حدث العالم وإثبات مُحْدَثِهِ...وعلى ما يجب كونه عليه من وحدانيته، وكونه حيًا عالمًا قادرًا في أزله...وجواز إرساله رسلا إلى خلقه..."[1]

و يضيق قائلا:"وقطع العذر في إيجاب تصديقهم، بما أبانهم به من الآيات ودل به على صدقهم من المعجزات، وجعل من الكلام على سائر أهل الملل المخالفين لملّة الإسلام من اليهود، والنصارى، والمجوس، وغيرهم، ونَعْقُبُ ذلك بذكر أبواب الخلاف بين أهل الحق، وأهل التجسيم والتشبيه، وأهل القدر والاعتزال، والرافضة، والخوارج، وذكر جمل من مناقب الصحابة وفضائل الأئمة الأربعة ووجوب موالاتهم..."[2]

زيادة على هذا فإنّ من الأمور المهمّة التي تناولها في هذا الكتاب هي: "الكلام في إثبات نبوّة محمّد ρ ، ولعل من الدلائل التي تشير إلى ذلك ما ظهر على يديه عليه السلام من آيات ومعجزات خارقة للعادة، والخارجة من تركيب الطبيعة، حيث يعدّ القرآن الكريم من تلك المعجزات التي تمثّلت في انشقاق القمر، وحنين الجذع، وكلام الذئب وجعل قليل الطعام كثيرًا، وتسبيح الحصى على يديه... وغيرها من الآيات التي هي مقدورات الخالق التي تمتنع على الخلق فلا يأتوا بمثلها."[3]

أما في "استدلاله على معجزة القرآن فنجده يعتمد طريقتين:طريقة الاضطرار، وطريقة النّظر والاستدلال، أما الأولى ففيها أنّ العلم بظهور القرآن على يدي النبّي محمّد ρ هو علم اضطرار، إذ

[1] - الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 37 – 38.

[2] – المرجع نفسه، ص 37 – 38.

[3] – سميرة فرحات، مرجع سابق، ص 113– 114 (بتصرف).

لا يمكن لأحد نكرانه وجَحْدُهُ، كذلك ظهور النّبيυ في مكة والمدينة ودعوته إلى نفسه هو علم ضرورة.

هذا وقد أقرّ كل من يُدِين بغير دين الإسلام من يهود ونصارى ومجوس، وزنادقة وغيرهم بأنّ القرآن الْمَتْلُوَّ في محاريب المسلمين ظهر على محمّد ودعا إلى نفسه."[1]

أما عن المعجزات الأخرى التي ذكرت "فيمكن معرفتها بالثانية أي بالنّظر والاستدلال، لأنّ هذه المعلومات في اعتبار **الباقلّاني** قد تناقلتها الأخبار، ورواها خلف عن سلف ممن شاهدوا النّبي وعاصروه، ثمّ إنّ تعليلهـ هذا لا تدعمه سوى طريقة النقل والتواتر والأخبار، والتي اعتمدها الإمام أساسًا في إثبات حجّته ورأيه، وعليه فإنّ هذه الطريقة مع طريقة العلم بالاضطرار تعتبر من طرق الاستدلال الأصولية، أو الطرق العقلية الخاصة بالمكلف."[2]

هذا عن الوجه الأول الذي استعمله **الباقلّاني** في إظهار إعجاز القرآن، "أما الوجه الثاني والمتمثل في تلك الطرق المادية التي تعتمد على إظهار البناء اللّغوي للقرآن بما فيه من معنى ومبنى: فقد أظهر **الباقلّاني** إعجاز القرآن في نظمه وبراعة تأليفه وكذا فيما انطوى عليه من أخبار الغيوب وعلمها، أما النّظم فقد تحدّى النّبي به العرب على أن يأتوا بمثله في براعته وفصاحته وحسن تأليفه."[3] يقول تعالى:

"قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ "(الإسراء : 88).

فالإعجاز في نظره يكون في "نظم الكلمات وإحكام رصفها، وكونها على وزن ما أتى به **النّبي** الكريم عليه الصلاة وأزكى التسليم. أما عن ما انطوى عليه من الأخبار عن الغيوب، التي يعجز الخلق عن معرفتها والتوصل إليها وإدراكها من غير علم سابق، كما أنّ القرآن زيادة على هذا قد انطوى

[1]- سميرة فرحات، مرجع سابق، ص 114 (بتصرف).
[2]- المرجع نفسه، ص114 (بتصرف).
[3]- المرجع نفسه، ص 115.

على قصص الأوّلين وسير الماضين وأحاديث المتقدّمين وفي هذا تحدّى النبي ρ قومه به على أن يأتوا بمثله، فلم يفعلوا وقد عجزوا عنه."[1]

"ولو كانوا قادرين على معارضته أو معارضة سورة منه لسارعوا إلى ذلك ولكان أهون عليهم من نصب الحرب وتحمّل الأهوال والصبر على القتل واحتمال الذل والعار."[2]

2- 2. **كتاب الانتصار** لصحة نقل القرآن والرد على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان:

جاء في مقدمة التحقيق لكتاب الانتصار:" لقد كان **أبو بكر الباقلّاني** من العلماء الذين نلمح في كتاباتهم العمق والأصالة وطول النفس فكان اللّسان الذي يدافع، والقلم الذي يسارع، والعقل الذي يبرهن... يرد الحجة بالحجة، ويقمع البدعة بالسنّة ويحارب الشبهة باليقين، فناظر المبطلين... وحمى حوزة الدّين."[3]

هذا بالإضافة إلى "ما كان عليه من تأليف في علوم القرآن وإعجازه، وبيان ما ينطوي عليه من الأسرار، فأبدع في ذلك وتألّق وبحث وتعمّق، حتى سارت بكتبه الركبان، وكان من الدرّر التي كتب، كتابه الانتصار الذي أودع فيه مكنون صدره وخلاصة فكره، فكان وردًا أمينًا ودِرْعًا متينًا أبطل من خلاله الشبهات، ودافع عن الحرمات، وانتصر للقرآن."[4]

زيادة على ما سبق فإنّ لتأليف (كتاب الانتصار) دواعي وأسباب قد دعت **الباقلّاني** إلى وضع هذا المصنّف منها "ما وجد في عصر الإمام من ظهور فرق كان همّها الطعن في القرآن والتشكيك فيه، وفي صحة نقله وخلوّه من الخطأ واللّحن، فتصدّى لهم **الباقلّاني** مفنّدًا لمزاعمهم داحضا لحججهم، هذا وبالإضافة إلى نقض المؤلّف للطعون التي وجّهت إلى القرآن الكريم نجده يضيف إلى

[1]- سميرة فرحات، مرجع سابق، ص 116 (بتصرف).
[2]- أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 142.
[3] - الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 10-11 (بتصرف).
[4]- المرجع نفسه، ص 10-11 (بتصرف).

ذلك بحوثًا في علوم القرآن، مثل عد الآي، وترتيب السّور، والأحرف السبعة والناسخ والمنسوخ، وغيرها من الأبواب."[1]

هذا وقد تناول **الباقلّاني** العديد من القضايا ضمن مجموعة من الأبواب ليخرج (الانتصار) ضمن جزئين حيث نرى المؤلّف يورد ما تناوله ضمن كتابه في مقدمة الانتصار إذ يقول:"ونبدأ بالكلام في نقل القراءات، وقيام الحجّة به، ووصف توفّر همم الأمّة على نقله وحياطته...ونذكر ما يتعلق به من ادعاء نقصان القرآن، وتغيير نظمه وتحريفه، ثمّ نكشف عن تكذب الروايات الشاذة الباطلة."[2]

ويضيف قائلا:"وقد ذكرنا في كتاب (الانتصار لصحة نقل القرآن) جميع مطاعن الملحدة وكل من خالف عن الملّة على القرآن، وكشفنا عن فساد توهّمهم، وما طعنوا به من كثرة التكرار، وقولهم: إنّ فيه ما ليس من لغة العرب وفيه كلمات ملحونة لا تجوز في الإعراب... واعترضنا أيضًا على قول من زعم أنّ القرآن يجب الإيمان به دون معرفة معناه وتأويله."[3]

ضف إلى ذلك فإنّ **الباقلّاني** قد ضمّن كتابه حديثًا عن قضية الإعجاز وقد امتازت دراسته للقضية في (الانتصار) بأنّها "جاءت ضمن دراسته العامة للقرآن في تاريخه وقراءاته... فيتدرّج في أبواب الكتاب حتى يصل إلى باب أسماه (ذكر مطاعنهم على القرآن)، ويتولّى فيه الرد على الآيات التي طعن عليه فيها من ناحية اللّغة، معتمدًا فيما أورده على إثبات صحة الأسلوب القرآني بمقابلته بأساليب العرب الصحيحة البليغة شعرًا ونثرًا، فتكلّم عن الحذف والتكرار والزيادة والمشكل من لغات القرآن."[4]

وفي حديثه عن الحذف والاختصار نذكر شاهدًا من الشواهد القرآنية التي أوردها في كتابه مع مقابلتها بشاهد من الشّعر العربي حيث يقول:" ومن الحذف والاختصار المعروف في كلامهم حذف "لا" في القسم ومنه قوله تعالى: " **يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ** ﴿١٧٦﴾ " (النّساء: 176)

---

[1]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق ، ص 33.

[2]- الباقلّاني إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 41 (بتصرف).

[3]- المرجع نفسه، ص 41 - 42.

[4]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، المرجع نفسه، ص 36.

أما في قول الشاعر:

فقلـــتُ يميـن الله أبـرحُ قاعـــداً ** ولو قَطَـعُـوا رأسـي لَدَيكِ وأصـالــي**

و هو يريد: يمين الله لازمة لي أبراح قاعدا، فحذف على وجه الاختصار، وهذا أكثر من أن يتتبّع فمن ادّعى الفساد والتّخليط بمثل هذا فقد جهل و أبعد"[1]

هذا في تحدّثه عن إعجاز القرآن الذي يعدّ بطبيعة الحال من أهم القضايا النّقدية، ثمّ إنّ كتاب الانتصار يعد من أوسع كتب الاحتجاج للقرآن، فهو أساس للدراسات القرآنية جاء على درجة كبيرة من السبك اللّغوي والدّقة البيانية، إذ يمثّل نموذجًا بلاغيًا ناضجًا، أفاد منه من جاء بعد الإمام من العلماء سواء في مجال علوم القرآن أم في الدفاع عنه وردّ الشبهات والمطاعن الكاذبة حوله."[2]

2-3. **كتاب البيان** عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسّحر:

وهو من الكتب المهمّة التي نسبت إلى القاضي **الباقلّاني** الذي وضعه في أواخر حياته "حقّق (البيان) على يد (الأب **مكارتي اليسوعي**)، وقد كان الكتاب غنيًّا ومنسّقًا في محتواه حيث عقد فيه **الباقلّاني** فصولا تكلّم فيها عن جملة من الموضوعات، فكان الكلام في الفصل الأوّل عن حقيقة المعجز ومعناه وفي وجود العادة، ثمّ نجده يتحدث في الفصل الثاني عن خصائص الرّسل وظهور المعجز، أما الثالث فكان لبيان الفرق بين المعجز والحيل والشعوذة هذا وقد عقد الإمام فصلا رابعًا في وجود السّحر والفصل بينه وبين المعجز وبين السّاحر والملاك والشيطان."[3]

أما في سياق حديثه عن هذه القضايا نجده يذكر أنّ "القليل المعتاد الذي لا يدل على علم فاعله وقصده كالكلمة وكتابه الحرف أو الحرفين قصده من ذلك أنّ الجمل القليلة لا تفي بالمعنى، ولا تدل على مدى علم صاحبها، أما الكثير غير المعتاد، فيدل على علم فاعله وقصده، مثل: نظم القرآن."[4]

---

[1]- الباقلّاني، الانتصار للقرآن، مرجع سابق، ص 577 - 578.

[2]- المرجع نفسه، ص 45.

[3]- سميرة فرحات ، مرجع سابق، ص 47.

[4]-المرجع نفسه، ص 48 (بتصرف).

وقد ذكر **الباقلّاني** "ضمن كلامه عن المعجز أنّ أهل اللّغة قد وصفوا آيات الرّسل بالمعجز، لإثباتهم عجز العباد عنها، حيث نجده يخالفهم في هذا التعريف ليقول أنّه يكون في انفراد **الله** عزَّ وجلَّ بالقدرة عليه، إذ لا يصح دخوله تحت قدر الخلق من ملائكة وبشر وجن، وفي هذا يعتبر أنّ وصف اللّغويين للمعجز وصف صحيح من جهة التسمية وخاطئ من ناحية النّظر والحجة."[1]

وفي ذات السياق يرى **الباقلّاني** أنّ "الإعجاز في نظم القرآن وبلاغته أبلغ من إعجاز إبراء الأبرص وقلب العصا ثعبان، حيث أنّ هذه المعجزات متأتية بالاكتساب والنّقل عن الغير، بينما بلاغة القرآن طباعة وليست بأمور مكتسبة موجودة في النّفس، والدليل على هذا أنّ محمّدًا ﷺ كان مبعوثًا من قوم كانوا أفصح العرب وأبلغهم، فلما عجزوا تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا."[2]

هذا ولعل من أهم المسائل التي أثيرت في كتاب البيان لإثبات المعجز مسألتان:

1- مسألة القدرة الإلهية القادرة على الخلق والإبداع، تقابلها القدرة الإنسانية المكتسبة من **الله** تعالى.

2- مسألة الإيمان بوجود الأنبياء والرّسل وظهور المعجز على أيديهم وإثباته بعد تحدي النّاس لهم."[3]

ثمّ إنّ النّاظر في كتاب البيان يرى "فكر **الباقلّاني** يمهّد لكتاب آخر ألّف فيما بعد، وهو كتاب إعجاز القرآن، فكأن الكتابين كتاب واحد من جزأين:

- الأول يتناول الكلام في المعجز وظهوره بقدرة **الله** تعالى على الأنبياء والرّسل عليهم السلام مع تمييزه عن السّحر والشعوذة.

---

[1]- سميرة فرحات، مرجع سابق ، ص 48 (بتصرف).

[2]- المرجع نفسه، ص 49.

[3]- المرجع نفسه، ص 56 -57.

– أما الثاني فيفرد فيه الكلام حول الإعجاز في القرآن بخاصة، من حيث ظهوره على النبيّ ρ ومن حيث إخباره بالغيب بأسلوب فاق كل الأساليب فكان دليلا معجزًا على صدق الدعوة المحمدية."[1]

والجدير بالذّكر هنا أنّ هذه الكتب التي ذكرنا "ليست في صميم الإعجاز، فالأول في العقيدة وفيه فصل للإعجاز، والثاني خاص بعلوم القرآن ومنها إعجازه، والثالث كان في الفرق بين المعجزات والكرامات، وكان فيه كلام عن قضية الإعجاز التي لم تتجلى بوضوح إلّا في كتابه المشهور (إعجاز القرآن) الذي يعد الدراسة الناضجة لآراء **الباقلّاني** مجتمعة في نظم القرآن."[2]

2–3. كتـاب إعجـاز القرآن:

يعد (إعجاز القرآن) "أوّل كتب **الباقلّاني** نشرًا، وأشهرها ذكرًا، وهو أعظم كتاب ألّف في موضوع الإعجاز إلى اليوم، فهو من دعائم هذا العلم وأركانه، كيف لا وهو نتاج عَلَمٍ من أعلام الأمّة صاحب الفكر الأصيل، والعلم الرّاسخ، والحجّة المنطقية القوية في إثبات الحق وبيانه."[3]

وعليه فقد "حاز كتاب **الباقلّاني** مرتبة مهمة في تاريخ التأليف في علوم القرآن، متضمّنًا عديد القضايا النّقدية والبلاغية، التي ترتبط بمسألة الإعجاز ارتباطًا وثيقًا، ليشكّل به الإمام متنا حافلا برؤى الإعجاز، والنقد معًا." [4]

هذا وقد كان "للكتاب عدّة طبعات، منها ما هو بين أيدينا من تحقيق السيد **أحمد صقر**، وهي الطبعة الثالثة التي طبعت بدار المعارف في مصر، كما وجدت صورة عديدة لمخطوط الكتاب في أماكن متفرّقة من العالم، إذ له نسخة بمكتبة **الأسكوريال** بإسبانيا تحت رقم (1359) ونسخة أخرى بالمكتبة الظاهرية بدمشق وغيرها."[5]

---

[1]– سميرة فرحات، مرجع سابق، ص 57.

[2]– ينظر، أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 142.

[3]– ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 67.

[4]– ينظر، فاضل عبود التميمي، إشكالية البديع وإعجاز القرآن رؤية (الباقلّاني) مثالا مجلة ديالي، جامعة ديالي، العدد 46، كلية التربية، الأصمعي، 2010 م، ص 283.

[5]– فراس الشايب، الآراء الأصولية لأبي بكر محمد بن الطّيب الباقلّاني، في المقدمات الأصولية ودلالات الألفاظ وعوارضها دراسة مقارنة، إشراف، زين العابدين، النور، قسم الفقه وأصوله، جامعة آل البيت، 2000م – 1421هـ، ص 50.

وللإشارة فإنّنا قد ذكرنا بعض كتابات **الباقلّاني**، وما فيها من حديث عن الإعجاز، باعتباره من أهم القضايا النّقدية التي حظيت باهتمام وعناية العلماء، باختلاف الفترات والأزمنة.

وحريّ بنا قبل البدء في ذكر ما احتواه (إعجاز القرآن) من قضايا نقدية أن نورد سردًا لأهم ما حواه هذا المؤلّف بين دفّتيه من تقسيمات شملت جملة من الأبواب والفصول وعليه فإنّ النّاظر لهذا الكتاب يلحظ ابتداءه بمقدمة تمهيدية نوّه فيها إلى بعض الإشارات نذكر منها:

– أنّ **الباقلّاني** قد نبّه إلى أهمية دراسة مسألة الإعجاز في القرآن الكريم فهو "من أهم ما يجب على أهل دين **الله** كشفه، وأولى ما يلزم بحثه لأنّه القوام لأصل دينهم، والعماد لقاعدة توحيدهم وفيه تبيان معجزة النبيّ محمّد ρ بالحجّة والبرهان."[1]

لأن "محاولات التشكيك لا تنشط إلا في غيبة الفهم المؤسّس والمعرفة المستنيرة، ولهذا كان الجهل في حياة المسلمين هو الذي أعاق تقدّمهم الحضاري والمعرفي كما شكّل خطرًا على عقيدتهم التي هي قوام أمرهم."[2]

وقد أشار **الباقلّاني** إلى أنّ:" الذين ألّفوا في معاني القرآن من علماء اللّغة والكلام لم يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانته، مع أنّ الحاجة إلى ذلك البيان أمس والاشتغال به أوجب."[3]

وفي هذا نجد الإمام قد قدّم التأليف في الإعجاز القرآني على غيره من المسائل الأخرى كغريب النحو وبديع الإعراب.

ثم نجده يلفت نظر القارئ إلى التقصير الذي رآه في ما صنّفه العلماء في الإعجاز، وأنّ ما وضعوه حول المسألة لم يكن كاملا في بابه مع نقص الترتيب والتهذيب، والسبب يرجع إلى أنّ بيان وجه

[1]– ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 03 – 04 (بتصرف).

[2]– محمد أبو موسى، مرجع سابق، ص 168 (بتصرف).

[3]– الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص 67.

الإعجاز كما يقول **الباقلّاني**:" ممّا لا يمكن بيانه إلّا بعد التقدّم في أمور عظيمة المقدار، ودقيقة المسلك لطيفة المأخذ."[1]

فالعلماء في نظر **الباقلّاني** "لم يعطوا مسألة الإعجاز ما كان يجب لها من الصبر عليها والحفاوة بها، ولو أنّ هذه العقليات البارعة انصبّت في القضية لكانت جديرة أن تستخرج منها دقائق ورقائق وأضاءت ما كان ملتبساً فيها."[2]

أما ما جاء بعد المقدّمة من كلام فهو مقسّم إلى ثمانية عشر فصلا وضع ثمانية فصول شملت العديد من الموضوعات، ثمّ أفرد الفصول العشرة الأخرى، والملاحظ أنّ الكتاب يحتوي بابًا واحدًا فقط، وفيما يلي سنستعرض أهم ما حوته تلك الفصول مع التركيز على ما أورده حول مسألة الأعجاز مستخلصين أهم القضايا النّقدية التي وجدت ضمن محتواه.

أما الفصل الأول ففيه يبيّن **الباقلّاني** أنّ نبوّة محمّدρ مبنية على دلالة معجزة القرآن، وفي هذا نجده يستدل بآيات كثيرة، فقال:" الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أنّ نبوّة نبيّنا υ بنيت على هذه المعجزة."[3]

ثمّ نجده قد عقد في الفصل الثاني بيان لكيفية الدلالة على كون القرآن معجزًا وقد بنى قوله على أصلين:

1. "وقوع العلم الضروري بأنّ القرآن المتلوّ المحفوظ والمرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النّبي ρ من عند **الله** تعالى."[4]

2."أنّه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله وقرعهم على ترك الإتيان به طول تلك السنين فلم يأتوا بذلك وقد استدل في هذا أيضاً على الآيات العديدة من القرآن."[1]

---

[1]- ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق ، ص 67.

[2]- محمد أبو موسى، مرجع سابق، ص 172.

[3]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص 08.

[4]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق ، ص 68 .

أما الفصل الثالث فقد تناول فيه الحديث في جملة وجوه إعجاز القرآن وهي ثلاثة كما وجدها لدى الأشاعرة:

– **الوجه الأول**: "هو ما تضمّنه القرآن من الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه.

– **الوجه الثاني**: أنّه أتى بحمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمّات السير من حين خلق **الله آدم** υ إلى مبعثه، مع أنّه كان أميًّا لا يحسن الكتابة ولا القراءة، ولم يكن يعرف عن كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم شيئًا."[2]

– **الوجه الثالث**:" أنّ القرآن الكريم بديع النّظم، عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه."[3]

وإذا انتقلنا إلى رابع فصل في الكتاب نجده يحوي شرحاً لتلك الأوجه الإعجازية الثلاثة السابقة.

– أما الفصل الخامس فجعله مقصوراً على نفي الشّعر من القرآن الكريم.

– ثمّ نجده يعقد فصلا سادسًا لنفي السّجع من القرآن الكريم.

– وإذا مررنا إلى الفصل السابع نجده قد خصّصه لذكر البديع من الكلام، وفيه حديث مستفيض عن أنواع البديع المختلفة.

– ليتناول في الفصل الثامن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن ، ويلي هذه الفصول الثمانية الباب الذي عقده **الباقلّاني** لبيان ما إذا كان الشّعر أفصح من الخطب وأبرع من الرسائل، وتبيان أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم.

هذا وقد أتبع ذلك الباب بعشر فصول أخرى نذكرها كما يلي:

---

[1] – محمد زنجيير، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، سلسلة الدراسات القرآنية (2)، جائزة دبي للقرآن الكريم، ط 1، 2007م، 1428هـ، ص 86.

[2] - الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه ، ص 69.

[3] – المرجع نفسه، ص 69.

– فصل في الرّد على من زعم أنّ عجز أهل عصر النبوّة، عن معارضة القرآن والإتيان بمثله، لا يستلزم عجز أهل الأعصر التالية.

– فصل في التحدّي، وبيان أنّه قد يكون ضروريًا في معرفة كون القرآن معجزًا.

– فصل في قدر المعجز من القرآن، وبيان الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة في ذلك، وقد بيّن فيه أنّ الإعجاز يتفاوت ظهورًا وغموضًا بسبب اختلاف حال الكلام.

– فصل في أنّه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة ؟ أم استدلالا ؟ إذ أنّه استدلالي في حق الأعجمي، ضروري في حق المحيط بمذاهب العربية، وغرائب الصنعة.

– فصل فيما يتعلق به الإعجاز.

– فصل في وصف وجوه من البلاغة مع التمثيل لها، حيث نقل عن بعض أهل الكلام والأدب ومنهم **الرّماني**، أنّ البلاغة على عشرة أقسام، والتي بسطنا لها الحديث فيما سبق من صفحات.

– فصل في بيان حقيقة المعجز، وانفراد **الله** تعالى بالقدرة على المعجز الدّال على صدق النبيّ ε وأنّه خارج عن عادة البشر.

– فصل في كلام النّبي ε مع ذكر أمور تتّصل بالإعجاز.

– فصل في بيان أنّ شرط المعجز أن يعلم أنّه أتى به من ظهر عليه.

أما في الفصل الأخير فقد أفرده لبيان ما تقدّم له من الإبانة عن كون القرآن معجزًا، كاف مقنع مع وجازته، ليختم كتابه بكلمة ختامية تضمّنت وصف القرآن الكريم، وسرد أنواع البلاغة والبديع التي تحقّقت فيه، ثمّ وصف الشّعر والفرق بينهما."[1]

وقد أنهى **الباقلّاني** كتابه بقوله:" فتأمّل ما عرفناك في كتابنا، وفرّغ له قلبك، واجمع عليه لبّك، ثمّ اعتصم **بالله** يهدك، وتوكّل عليه يُعنك، ويُجرك واسترشده يرشدك، وهو حسبي وحسبك، ونعم الوكيل."[1]

[1]– الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص393 .

- **القضايا النقدية في كتاب (إعجاز القرآن) :**

إنّ من أصول كتب النقد التي ألّفت في القرن الرابع الهجري كتاب إعجاز القرآن الذي ألّفه القاضي **الباقلّاني** حيث " استبد بهذا الفرع من التصنيف في الإعجاز، واحتمل المؤونة فيه بجملتها من الكلام والعربية والنقد، حتى عدوه الكتاب وحده لا يشرك العلماء معه كتاب آخر في قوة حجته، وبسط عبارته."[2]

إضافة إلى ذلك فإن القاضي **الباقلّاني** كان "على وعي دقيق بقضايا النقد الأدبي حسبما بلغت في تطورها حتى عصره ثم إنه في كتاب (إعجاز القرآن) قد مس عديد القضايا عابرًا دون توقف، من ذلك مثلا فكرة العلاقة بين التصوير والشّعر وكيف أن الشّعر هو تصوير ما في النفس للغير."[3]

"ومن ذلك أيضًا ما لمحه أن الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزّهد قصّر." [4]

والحديث هنا يكون حول أهم المسائل النقدية الكبرى التي استخدمها في كتابه ومنها أن مسألة التفاوت و عنها يقول: "أن عدم التفاوت في نظم القرآن يرتفع به عن مستوى أي شعر أو نثر، لأنّ عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم وأحكام..."[5]

غير أنّ كلام البلغاء يتفاوت سواء كان شعرًا أو نثرًا وفي هذا نجده يقول:"ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور:

* فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو.
* ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح.
* ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين...

---

[1]- المرجع نفسه، ص 305.

[2] – عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، ص 89.

[3] – إحسان عباس، مرجع سابق، ص 354.

[4] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص 305.

[5] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق ، ص 54.

* ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل ..."[1]

"ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرّف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فإذا جاء إلى غير قصر عنه..."[2]

وقد تكلم **الباقلّاني** عن هذه المسألة كثيرًا إذ رأى" أن كلام الفصحاء يتفاوت في الفصل والوصل والعلوّ والنزول، والتقريب والتّبعيد...ثم إن هذا التفاوت نفسه محك الناقد البارع لأنه يميز طرائق الشعراء ولا تخفى عليه صنعة **أبي نواس** من سبك **مسلم** ولا نسج **ابن الرومي** من نسج **البحتري** وهذا الناقد هو الذي لا يُرد حكمه في النقد، كما هو الشأن في إعجاز القرآن فالبليغ يعرف علوّ شأن القرآن وعجيب نظمه."[3]

"وعليه فإن النّظم هو الطريق التي اختارها **الباقلّاني** لإثبات الإعجاز، ثم إنّ عدم التّفاوت ليس هو المظهر الوحيد الدّال على إعجاز نظم القرآن الكريم، إنما هناك عنصران آخران هما:

1- الطول الذي استوعبه ذلك النّظم دون تفاوت، فالمعروف في الشّعر والنثر أنّ الشاعر لا يجيد إلا في أبيات أو قصائد..."[4]

2- أن هذا النّظم قد ورد على غير المعهود من جميع نظوم الكلام عند العرب."[5]

ثم إنّ الكلام عندهم يقع تحت نماذج قد ذكرها الإمام في مصنّفه وهي:

- "أعاريض الشّعر على اختلاف أنواعه.
- أنواع الكلام الموزون غير مقفّى.
- أصناف الكلام المعدّل المسجع.
- أصناف الكلام المعدّل الموزون غير المسجع.
- أصناف الكلام المرسل."[1]

---

[1] - إحسان عباس، مرجع سابق، ص 347 – 348.

[2] - الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص 55.

[3] - إحسان عباس، المرجع نفسه، ص 348.

[4] - إحسان عباس، مرجع سابق، ص 346.

[5] - المرجع نفسه، ص 346.

والمتدبر في نظم القرآن يجده لا يسير على واحد من هذه النماذج، ولذلك نفى **الباقلّاني** أن يكون في القرآن شعر أو سجع، فوضع في كتابه فصلين نفى فيهما الشّعر والسجع من القرآن.

فقال في نفي الشعر عن القرآن أن **الله** تعالى قد نفى الشعر عن كلامه وعن نبيّه **محمّد** ρ فقال تعالى:" **وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ** ﴿٦٩﴾ "(يس: 69).

3- الدراسة البلاغية في كتاب إعجاز القرآن:

لقد أسهب **الباقلّاني** في كتابه إعجاز القرآن في الحديث عن قضية الإعجاز القرآني، إذ "يعدّ كتابه من المصادر البلاغية التي أسهمت في تحديد مسار البلاغة ثمّ إنّ قضايا البلاغة ومباحثها متعددة في كتاب **الباقلّاني** حيث أفرد لتلك القضايا بعض الفصول في متنه، ومن تلك الفصول، فصل تكلّم فيه عن البديع في الكلام، كما أورد في أواخر الكتاب فصلا ذكر فيه (وصفًا لوجوه البلاغة)، متتّبعًا فيه ما أورده **الرّماني** في كتابه (النّكت في إعجاز القرآن) من تقسيم للبلاغة على عشرة وجوه." [2] و التي كانت لنا وقفة إزاءها فيما سبق من كلام.

[1] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 52.

[2]– ميسون الحمداني، الباقلّاني وجهوده في علم البلاغة مجلة – دراسات البصرة – السنة الرابعة /ع 14 – 2012م، ص 75.

وقد كانت بعض فصول الكتاب "تجمع بين القضايا البلاغية والقضايا الكلامية، كالفصل الذي تحدّث فيه عن (جملة وجوه إعجاز القرآن) إذ نجده يحصر الإعجاز القرآني في هذا الفصل في مجموعة من الوجوه منها ما هو بلاغي ومنها ما هو كلامي." [1]

حيث "حدّد ثلاثة وجوه أساسية، نقلها عن الأشاعرة، وهي عنده:

1- الإخبار الصادق عن الغيوب.

2- الإخبار عن قصص السابقين، وسير الأمم الخالية.

3- نظمه البَديعْ، وتأليفه العجيب، وبلاغته المتناهية التي يعجز عن محاكاتها البشر." [2]

حيث نجد **الباقلّاني** "يوجّه جل عنايته على الوجه الثالث من وجوه الإعجاز، وهو الوجه البلاغي منها، إذ يحاول بطريقته الفريدة أن يثبت تميّز الأسلوب القرآني، والبلاغة القرآنية على أسلوب البشر وبلاغتهم."[3]

وفي حديثه عن البديع نجده يعقد فصلا في ذكر البديع من الكلام لإثبات الإعجاز البلاغي للقرآن حيث نراه ينفي أن تكون معرفة الإعجاز في القرآن بما فيه من بديع، وفي هذا يتساءل :" هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمّنه من البديع قيل: ذكر أهل الصنعة ومن صنّف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظًا نحن نذكرها ثمّ نبيّن ما سألوا عنه ليكون الكلام واردًا على أمر بيّن وباب مقرر مصور."[4]

وتفصيلا لذلك نجده "يتكلم عن البديع في كتابه (إعجاز القرآن) ضمن العديد من فنون البلاغة، مستشهداً في ذلك بشواهد من القرآن والشّعر.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 75.

[2]- فاضل عبود التميمي، مرجع سابق، ص 282 – 283.

[3] - ميسون الحمداني، المرجع نفسه، ص 76 (بتصرف).

[4] - الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 66.

فالبديع عنده يشمل كل المباحث والفنون البلاغية، لتصبح فيما بعد تقسيمات البلاغة الثلاث (بيان، بديع، ومعاني)."[1]

فأما "البديع في الاستعارة من القرآن فمثالها قوله تعالى:" **وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ ﴿٤٤﴾** (الزخرف : 44)." [2]

ثمّ في الشّعر العربي يذكر قول **امرئ القيس**:

وليل كموج البحر أرخى سدُولَه ** عليَّ بأنــواعِ الهمومِ ليبتَــــلي**
فقلتُ له لـما تمطـىَّ بصُلبِـه ** وأَرْدَفَ أعــجازاً وناءَ بكَلْكَــلِ."[3]**

ثمّ في ذكر "البديع في التّشبيه نجده يمثل له من القرآن بقوله تعالى:"وَلَهُ **ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾** " (الرّحمن: 24)."

أما في الشّعر فيذكر قول **امرئ القيس**:

له أَيْطَلاَ ظبي وساقا نعامــــــة ** وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقرِيبُ تَتْفُلِ."[4]**

ثمّ إنّ "البديع قد يكون في الكلمات الجامعة الحكيمة كقوله جلَّ شأنه:" **وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴿١٧٩﴾** "(البقرة :179).

[1] - ميسون الحمداني، مرجع سابق، ص 76.
[2] - الباقلاّني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص 77.
[3] - المرجع نفسه، ص 74.
[4] – الباقلاّني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 73.

وفي الألفاظ الفصيحة كقوله تعالى:"فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ ﴿٨٠﴾" (يوسف: 80).

وفي الألفاظ الإلهية كقوله جلَّ شأنه:" يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ (غافر : 16)."[1]

وبعد ذلك نجد **الباقلّاني** قد تناول بالذّكر "ألوانًا أخرى من البديع في كتابه كالغلو والإفراط في الصفة والمطابقة، والتجنيس والمقابلة، والموازنة، والمساواة، والإشارة، والمبالغة، والتوشيحْ، التكافؤ، والعكس، والتبديل، والالتفات...وغيرها من الوجوه الكثيرة."[2]

وقد كان "منهجه في تقصّي هذه الموضوعات وبحثها قائمًا على التعريف بالفن مع الاستشهاد بآيات الذّكر الحكيم، وكلام العرب البلغاء، حيث لا يكتفي بذكر الأمثلة بل يصب اهتمامه على التعبير القرآني لمقارنته بأساليب العرب وبذلك جمعت دراسته بين التعريف والتقسيم، والنّقد والتحليل."[3]

وبعد أن سرد **الباقلّاني** أنواع البديع ووجوهه اتّجه إلى القول بأنّ وجوه البديع ليس فيها ما يفسّر الإعجاز في القرآن حيث يقول:" وقد قدر مقدرون أنّه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأنّ ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأنّ هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعوّد والتصنّع لها، وذلك بالشّعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه صحّ منه التعمّل له وأمكنه نظمه والوجوه التي نقول إنّ إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس ممّا يقدر البشر على التصنّع له والتوصّل إليه بحال."[4]

---

[1] - المرجع نفسه، ص 66.

[2] - أحمد مطلوب اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 174.

[3] - المرجع نفسه، ص 174.

[4] - إحسان عباس، مرجع سابق، ص 346.

ومعنى ذلك أنّ **الباقلّاني** "لا يرى هذا الفن طريق لإثبات الإعجاز، لأنّه ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف بل إنّه شيء يمكن أن يحذقه المرء بالتعلّم." [1]

ثمّ إنّ البديع لدى **الباقلّاني** يدخل ضمن البراعة كباب من أبوابها، وفي هذا يقول:" يمكن أن يقال في البديع...إنّ ذلك باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة، وإنّه لا ينفكُّ القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم، وإذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديرًا." [2]

وانطلاقًا ممّا سبق، وبعدما عرض **الباقلّاني** جملة الشواهد لتبيان وجوه البديع نجده يتوصّل إلى أنّه "لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادّعَوْه في الشّعر ووصفوه، لأنّه فن ليس فيه ما يخرق العادة."[3]

ضف إلى ذلك فإنّ الإمام في عرضه لتلك النظرات ضمن دراسته البلاغية في كتاب (إعجاز القرآن)، نجده قد عقد في ختام كتابه فصلا لذكر وجوه البلاغة التي ذكرها **الرّماني** وفي هذا يقول: "ذكر بعض أهل الأدب والكلام أنّ البلاغة عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتّضمين، والمبالغة، وحسن البيان."[4]

وكان السبب وراء ذكره لهذه الأقسام البلاغية ليس لهدف تبنّيها كوجه من وجوه الإعجاز وإنّما جاء بها للردّ على **الرّماني** الذي اعتبر البلاغة بما فيها من أبواب وجها من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ليؤكّد الإمام رأيه القائل بأنّ الإعجاز لا يثبت من هذه الطريق وفيه يقول:" وإنّما ننكر أن يقول قائل إنّ بعض هذه الوجوه بإنفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه ما يتّصل به من الكلام ويفضي إليه مثل ما يقول: إنّ ما أقسم به وحْدَهُ بنفسه معجز، وإنّ التشبيه معجز وإنّ التجنيس معجز.... فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه فإن ادعى إعجازها لألفاظها، ونظمها وتأليفها

---

[1] – المرجع نفسه، ص 346.

[2] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 112.

[3] - المرجع نفسه، ص 111.

[4] - - أحمد مطلوب اتجاهات النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 176.

فإني أدفع ذلك وأصححه، ولكن لا أدعي إعجازها لموضع التشبيه، وصاحب المقالة (يعني **الرّماني**) أضاف ذلك إلى موضع التشبيه وما قرن به الوجوه..."[1]

وقد أضاف أنّ هذه الوجوه يمكن تقسيمها إلى قسمين:

1- "قسم يمكن الوقوع عليه والتعمّل له، ويدرك بالتعلّم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به.

2- أمّا الثاني فهو ما لا سبيل إليه بالتعمّل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه."[2]

وينتهي **الباقلّاني** من ذلك أنّ "مثل هذه الوجوه البلاغية ليست معجزة في حد ذاتها، وإنّما المعجز فيها يكمن في:

1- حسنها البالغ وسموّها.

2- ارتباطها واتّساقها مع بقية الكلام على نحو بالغ الروعة والتكامل."[3]

والملاحظ في كتاب (إعجاز القرآن) أنّه قد "حوى العديد من الآراء البلاغية التي إنّما تدل على ما تميّز به **الباقلّاني** من عمق نظر في نضج فكر، ومن القضايا التي عالجها في كتابه قضية النّظم القرآني الذي هو طريقة تأليف حروفه، وكلماته، وجمله، وسبكها مع أخواتها في قالب محكم."[4] ثمّ إنّ النّاظر إلى هذا الكتاب يلحظ فيه تلك "التفرقة بين النّظم والبديع والتي تعد أحد محاور الكتاب الأساسية، والنافذة التي أطلَّ من خلالها على ميدان البلاغة، كي يسهم فيه إسهامًا كانت له آثاره فيمن تلاه من البلاغيين."[5]

[1] – إحسان عباس، مرجع سابق، ص 347.

[2] – ميسون الحمداني، مرجع سابق، ص 77.

[3] – المرجع نفسه، ص 77.

[4] – مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 142.

[5] – حسن طبل، حول الإعجاز البلاغي للقرآن، قضايا ومباحث، مكتبة الإيمان، المنصورة، ص 88.

وباعتبار النّظم أحد وجوه الإعجاز لدى **الباقلّاني**، فإنّنا نراه "يقف إزاءه وقفة مطوّلة، حيث استغرق في حديثه عنه ما يربو على نصف صفحات الكتاب، لأنّه كان معنيًّا بإبراز تفرّد النّظم القرآني، وتمايزه عن سائر الطرق التعبيرية التي سلكها العرب."[1]

ولإظهار ذلك التمايز في نظم القرآن اعتنى **الباقلّاني** بالتدليل عليه "فقطع في فصلين متتاليين من كتابه، ينفي ظاهرتي الشّعر والسجع من القرآن، ومن هذا المنطلق كانت تفرقته بين النّظم والبديع الذي كان عنده يشمل معظم فنون البلاغة."[2]

ضف إلى ذلك فإن "معرفة وجه الإعجاز في لغة القرآن الكريم في نظره وقف على النّظم دون البديع، وذلك لأنّ تلك اللّغة بالنّظم تفرّدت، وبه ارتقت إلى طبقة غير متفاوتة في البيان يتعذر الارتقاء إليها على طاقات البشر، ومن هذه الزاوية تميز النّظم عن البديع الذي لم تتفرد لغة القرآن بظواهره، لأنّها ظواهر عامة عرفها العرب في الشّعر والنثر."[3]

فالنّظم عنده هو "ما يتّصل به الكلام ويفضي إليه، وهو مناط التّحدي ومردّ الإعجاز."[4]

حيث يورد العديد من الشواهد القرآنية التي يبيّن فيها ذلك النّظم البديع والائتلاف الجميل الحسن فيقول رحمه **الله** تعالى" فأمّا نهج القرآن ونظمه، وتأليفه، ورصفه، فإنّ العقول تتيه في جهته ...

فانظر إلى شريف هذا النّظم وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف، كل كلمة من هذه الآيات تامة وكل لفظ بديع واقعٌ.."[5]

---

[1] – المرجع نفسه، ص 89.

[2] – المرجع نفسه، ص 89 (بتصرف).

[3] – المرجع نفسه، ص 90.

[4] – المرجع نفسه، ص 91.

[5] – ينظر، الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 183 – 187.

المبحث الثالث:

∞ الأسلوب القرآني في خطاب الباقلّاني النّقدي ∞

1- الباقلّاني و رأيه في إعجاز القرآن:

لقد وهب **الباقلّاني** حياته وعلمه للدّفاع عن عقيدة السّلف، والردّ على المخالفين والملحدين، وتعد آراءه في كتاب (إعجاز القرآن) الترجمة لما جال في خاطره، وقد أعطى اهتمامًا بالغًا بالتأليف في الإعجاز، إذ نبّه العلماء إلى ذلك قائلا :" وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النّافعة في

معاني القرآن، وتكلّم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانته، فهو أحق بكثير مما صنّفوا فيه من القول في الجزء والطفرة... فالحاجة إلى هذا أمس."[1]

وعليه فإنّ الدارس لفكر **الباقلّاني** في هذا المجال لا يمكن أن يغفل الإشارة إلى" تلك الأصول الثابتة في البحث في بيان القرآن، ويمكن حصرها في رأي **الباقلّاني** كما يلي:

إن القرآن عمدة الدّين، فلن يتشكك أحد، ولا يجوز له ذلك مع وجود الأسباب في أنه أتى بهذا القرآن من عند **الله** تعالى، فهذا أصل."[2]

إن الذين شككوا في القرآن لم تكن لهم حجة يعتمدونها في ذلك، ويقول:" إنّه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله وقرعهم على ترك الإتيان به طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك وهذا أصل ثانٍ."[3]

"إنّ القرآن تضمّن الإخبار عن أمور الغيب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه." [4]

وقد بدأ **الباقلّاني** حديثه في إعجاز القرآن بتقرير أنّ القرآن هو معجزة الرسّول ρ وفي ذلك يقول:" الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوّة نبيّنا عليه السّلام بنيت على هذه المعجزة ...فأما دلالة القرآن، فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد."[5]

" وفي هذا يأخذ **الباقلّاني** في إقامة الدليل على أن القرآن هو معجزة الرسول من منطوق آيات الذّكر الحكيم، ليقول " فأما الذي يبيّن ما ذكرناه من أن **الله** تعالى حين إبتعثه جعل معجزته

[1] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 05.
[2] – محمد الحجوي، مرجع سابق، ص 82.
[3] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص 17.
[4] – محمد الحجوي، مرجع سابق، ص 83.
[5] – عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، مرجع سابق، ص 194 – 195.

القرآن، وبنى أمر نبوّته عليه، سور كثيرة وآيات، منها قوله تعالى:"الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ " (إبراهيم:1- 2)."[1]

ثم يأتي على ذكر أن القرآن قد تحدىّ العرب أن يأتوا بمثله في مواضع كثيرة من القرآن فتحدّاهم بقوله: "وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤ " (البقرة: 23 - 24).

وفي عجز العرب عن الإتيان بمثله دليل على أنّ القرآن كلام **الله** تعالى وهو دليل على وحدانيته جلَّ وعلا.وفي ذلك أمران هما التحدّي، وعدم الإتيان بمثله.

وكان هذا لعجزهم عنه، والدليل هو أنّه تحدّاهم به حتى طال التحدي، وجُعل دلالة على صدقه ونبوّته ع."[2]

"ويردّ **الباقلّاني** على القائلين بالصّرفة تلك الفكرة الاعتزالية التي أريد بها صرف الأذهان عن الاشتغال بأسلوب القرآن وإظهاره معجزًا، لاعتقادهم أنّه معجز من غير برهان عيني ما دام العقل هو الدليل وهنا يعود الإمام إلى البرهان بالعقل واستعماله حجة يردّ بها على المعتزلة."[3]

فيقول:" لو كانت هذه الفكرة مقبولة لكان القرآن مسلّم بإعجازه لعجيب وجوده، ولكنا نستغني عن إنزاله عن النّظم البديع الذي نراه، فأهل الجاهلية لم يكونوا قبلهم مصروفين عما كان يعدل به من الفصاحة ..ولما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان."[4]

---

[1] – المرجع نفسه، ص 195.

[2] – عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص 199 (بتصرف).

[3] – سميرة فرحات، مرجع سابق، ص 64.

[4] – المرجع نفسه، ص 64.

وينتهي **الباقلّاني** إلى "تفسير الصرفة بالمنع، فإذا قلنا بالصرفة، لم يعد كلام القرآن معجزًا، فلم يعد يتضمن فضيلة على غيره، فيصبح المنع هو المعجز وهذا ما أراد بطلانه."[1]

وقد ذكر أنّ "علّة إعجاز القرآن البياني هي التفاوت العظيم في النّظم الموجود في اللّغة العربية دون غيرها، لأنّها محتملة لوجوه من التلوّن في التعبير وفي دلالة الكلمات والترادف وغيرها."[2]

وقد دعى" إلى النظر في نصوص القرآن وغيره من ضروب الكلام العربي لمعرفة الفرق بينهما، ويقول أنّه ليس في وسع من لا يعرف العربية ولا من تعلّمها أن يحكم في هذه المسألة، ولكن يجب أن يعتمد على من يستطيع التفريق بين الأسلوب العادي والأسلوب المعجز."[3]

وفي هذا نجده يورد عديد الشواهد من القرآن وغيره من الكلام البليغ في موازنة منه لتبيان الفرق الشاسع بين بلاغة القرآن وغيرها من البلاغات الأخرى.

[1] – المرجع نفسه، ص 64.

[2] – نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن، من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط 2، 1400هـ- 1980م، ص 75.

[3] – المرجع نفسه، ص 76.

2- وجوه الإعجاز القرآني عند الباقلّاني:

لقد بحث **الباقلّاني** وجوه الإعجاز في كتابه (إعجاز القرآن) مقتفيًا أثر الأشاعرة في نظرتهم للإعجاز، حيث يقول:" ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز.

أ- الوجه الأول:

يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه، فمن ذلك ما وعد **الله** تعالى نبيّه ﷺ أنّه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عزَّ وجلَّ:"**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ** ﴿٣٣﴾ "(التوبة: 33)، ففعل ذلك. "[1]

ب- الوجه الثاني:

[1] - محمد زنجير، مرجع سابق، ص 87.

وعنه يقول :" أنه كان معلومًا من حال النبيّ ρ أنّه كان أميًّا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفًا أنه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدّمين وأقاصيصهم وأنباءهم وسيرهم.

ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمّات السيّر من حين خلق **الله آدم** υ إلى حين مبعثه."[1]

ج – الوجه الثالث:

وهو أهم الوجوه المتعلق بالبلاغة والنّظم وعنه يقول:" أنّه بديع النّظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه."[2]

ومن الملاحظ على هذه الوجوه أنّ **الباقلّاني**" قد وسّع مفهوم النّظم في إعجاز القرآن، وردّه إلى جملة أمور عرض لها في كتابه، فمن ذلك أنّ في القرآن وِحْدَة ونظامًا وله اتّساق في جملته، وائتلاف السورة منه ائتلافًا، يبين فيه ترابط أجزاءها، وأنّ إعجازه لا يتوقف، فأما الذي يستأثر به القرآن، ولا يجد نظيره في غيره من الكلام فهو التحام أجزاءه على تباين الموضوعات."[3]

ثم إنّ القرآن لا يتفاوت أسلوبه على كثرة ما يتصرّف فيه من أغراض كما أنّه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم." [4]

[1] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 34.

[2] – المرجع نفسه، ص 35.

[3] – عيسى الدريبي، نظرات في الإعجاز القرآني والتحدّي، مجلة ج الملك سعود، م 20 ، 2008م ، ص 86.

[4] – المرجع نفسه، ص 87.

3- المعاني الإعجازية في أسلوب القرآن ونظمه:

لقد تناول **الباقلّاني** الحديث عن أسلوب القرآن وعن نظمه ضمن ما اعتمده من وجوه للإعجاز، فكان النّظم القرآني هو ثالثها، إذ نجده يفصل القول فيه ويطيل الحديث عن معانيه المعجزة كاشفًا عما يحتويه نظم القرآن من آيات الإعجاز، جلّاها لنا الإمام في عشرة معانٍ كخصائص لأسلوب القرآن، وفيها:

-"المعنى الأول:

ما يرجع إلى الجملة، أي إلى جملة القرآن كلّه:

وذلك كما يصف لنا في قوله: أن نظم القرآن على تصرّف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد."[1]

[1] - الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 35.

وتبيان ذلك " أنّ الطرق التي يتقيّد بها الكلام البديع المنظوم منقسمة إلى أعاريض الشّعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثمّ إلى أصناف الكلام المعدّل المسجع، ثم إلى معدّل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة."[1]

ثم إنّ "القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق، فهو ليس من باب السجع ولا من قبيل الشّعر فبخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم يكون خارجًا عن العادة فهو معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميّز حاصل في جميعه."[2]

– المعنى الثاني:

"وقد ذكر فيه أنّه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرّف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة... والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول

وعلى هذا القدر... وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبًا في الفصاحة."[3]

"إذ لم يوجد عند العرب أثر أدبي يجاري القرآن في بلاغته، بحيث يحفظ فيه جمال الأسلوب ويكون في طوله بقدر كلام **الله** تعالى."[4]

– المعنى الثالث:

"وهو أنّ عجيب نظم القرآن، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرّف إليه من الوجوه التي يتصرّف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وأعذار وإنذار ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق وشيم رفيعة."[5]

فالمتأمل "شعر الشاعر البليغ يرى فيه ذلك التفاوت على حسب الأحوال التي يتصرّف فيها.

---

[1] – المرجع نفسه، ص 35.

[2] – عبد الكريم خطيب، مرجع سابق، ص 206.

[3] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 36.

[4] – نعيم الحمصي، مرجع سابق، ص 78.

[5] – الباقلّاني، إعجاز القرآن المرجع نفسه، ص 36.

ثم إنّ نظم القرآن إذا تأمله المتأمل يجد فيه جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حدّ واحد، في حسن النّظم، وبديع التأليف والرّصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا.

ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا."[1] "ويرى الإعجاز في جميع آياته الطويلة والقصيرة فهو على نهاية البلاغة وغاية البراعة بحيث لا يقدر عليه البشر." [2]

– المعنى الرابع:

أمّا هذا المعنى فهو" أن القرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب، تتبين به الفصاحة، وتظهر البلاغة، ومعه يخرج الكلام عن حدّ العادة، ويتجاوز العرف." [3]

وفي هذا السياق نجده ينبّه إلى ظاهرة التفاوت ويقول:" أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بينًا في الفصل والوصل، والعلوّ والنزول، والتقريب والتبعيد، وغيره مما ينقسم إليه الخطاب عند النّظم ويتصرف فيه القول عند الضمّ والجمع، حيث نرى الكثير من الشعراء بوصف بالنقص عند تنقله من معنى إلى معنى، والخروج من باب إلى سواه."[4]

– المعنى الخامس:

وفيه" نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يعجزون عن الإتيان بمثل القرآن كعجز البشر يقول تعالى:"**قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴿٨٨﴾ " (الإسراء : 88)."[5]

---

[1] – المرجع نفسه، ص 37 – 38.

[2] – المرجع نفسه، ص 38.

[3] – المرجع نفسه، ص 38.

[4] – الباقلّاني، إعجاز القرآن مرجع سابق ، ص 38 (ينظر).

[5] – ينظر، المرجع نفسه ، ص 38.

– المعنى السادس:

وعنه يقول القاضي **الباقلّاني**:"وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب، من البسط والاقتصار والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوّر والتحقيق، وغيرها من الوجوه التي توجد في كلامهم، كما أنّها موجودة في القرآن، وكلّ ذلك مما يتجاوز حدود الكلام المعتاد بينهم، في الفصاحة والإبداع والبلاغة."[1]

والمعنى من ذلك أنّ القرآن يشمل كل وجوه وتقسيمات الخطاب عند العرب، إلا أنه فاق ببلاغته ونظمه وأسلوبه المتفرّد كل معتاد من كلامهم متجاوزًا لحدوده في الفصاحة والبيان.

– المعنى السـابع:

وفيه يذكر أن معاني القرآن وألفاظه البديعة جاءت موافقة لبعضها البعض في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر وبذلك نجده يقول:"إن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدّين والردّ على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعض في اللطف والبراعة مما يمتنع على البشر ذلك حيث علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، فإذا برع اللّفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من وجوده في المعنى المتداول المتكرر." [2]

ويضيف قائلا أنه إذا إنضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم." [3]

---

[1] – المرجع نفسه، ص 42.

[2] – الباقلّاني، إعجاز القرآن مرجع سابق، ص 42.

[3] – ينظر، المرجع نفسه، ص 42.

– المعنى الثامن:

وفيه يقول:" أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، فيرى وجه رونقها باديا غامرا سائرا ما تقرن به كالدرة التي ترى في سلك من خرز و أنت إذا رأيت الكلمة من القرآن فيتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرّة جميعه وواسطة عقده والمنادى على نفسه بالتميز والرونق والجمال والاعتراض في الحسن."[1]

– المعنى التاسع:

وفحواه أنّ "الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً. يعرف أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم."[2]

ونجد **الباقلّاني** بعد ذلك يعطي تقسيمات هذه الحروف التي بنى العرب عليها وجوه كلامهم وعربتهم .

– المعنى العاشر:

وفيه يذكر أن القرآن جاء في لغته خارجا عن " الوحشي المستكره والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة فجاء قريبًا إلى الإفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النّفس، وهو مع ذلك متّسع المطلب عسير المتناول فلا يقدر عليه البشر، وعلى العكس في كلام الفصحاء العرب وشعر بلغاءهم الذي لاينفك من تصرف في غريب المستنكر أو وحشي المستكره ومعان مستبعدة." [3]

وعليه فلقد كانت تلك هي الاعتبارات والخصائص التي رآها **الباقلّاني** في أسلوب القرآن ونظمه المعجز وفي استوائه بها على مقام التحدّي والإعجاز.

---

[1] – ينظر، المرجع نفسه، ص 42 – 43.

[2] – الباقلّاني، إعجاز القرآن مرجع سابق ، ص 44.

[3] – المرجع نفسه، ص 47.